تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا

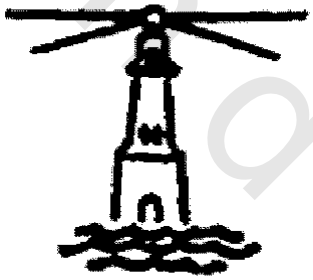

دار المعارف بمصر

obeikandl.com

obeikandl.com

صوفت عبد الله

القفص الأحمر

اقرأ ٣٩٣

دار المعارف بمصر

obeikandl.com

(اقرأ ٣٩٣)

obeikandl.com

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. م. ع.

إهـــداء

إلى رجل كنت أتمنى أن أضع بين يديه هذا الكتاب : والكتب التى نشرت لى من قبل ، على مدى ربع قرن ، فيكون أسعد خلق الله بها . .

ولكنه رحل قبل الأوان . . .

إلى أبى . . . « عبد الله واصف »

مع حبى وحنينى اللذين لم يخفف منهما مر السنين الطوال . . .

مصر الجديدة

١٩٧٥

صوفى عبدالله

obeikandl.com

هذه الأقاصيص كتبت فى الفترة من سنة ١٩٦٩ إلى سنة ١٩٧١ .

ص . ع

obeikandl.com

القفص الأحمر

obeikandl.com

شيء ما جاثم في الظلام . . شيء مهول يملأ فراغات الحجرة من حولها .. وهي راقدة .. راقدة على ظهرها . . عيناها مفتوحتان على سعتهما .. الدقائق تمر ثقيلة . . ثقيلة . . والنوم يراوغها ويهرب منها .. إحساس غامض يتملكها .. يزين لها أشياء وأشياء .. وتضيق الحجرة على سعتها.. تكاد تزهق أنفاسها . . والعرق ينزف من جسمها كقطرات دماء . . .

وكالعادة ، مدت يدها في الظلام تتحسس الحبة المنومة بجانبها على « الكومودينو » وبين أصبعيها التقطتها . . ووضعتها في فمها .. واعتدلت تشرب كوب الماء إلى آخر قطرة فيه . . .

هكذا ، عليها أن تبتلع مرارة الحياة حتى الثمالة . . . لقد اختارت طريقها . . . والآن تجني ثمار ما اختارته . . .

ألعلها حقًا أرادت لنفسها ما أصبحت فيه الآن ؟

في ريعان الحياة ، يستهين المرء بما بين يديه . . وفي أواسطها ، يتحسر على ما فاته مع أمل يراوده . . . أما في خريفها ، فالألم يحفر أخاديد عميقة تطفح مرارة كلما طافت بها الذكرى . . .

وهوّمت . . .

فتاة في ريعان الصبا ، اكتمل لها الحسن والثقافة في الخارج ، في الوقت الذي كان التعليم فيه بالنسبة للفتاة أملا صعب المنال . . . دونه ألف عقبة وعقبة . . فما بالك بمن امتطت متن السفن إلى الخارج ،

ونالت منه حظًّا يعتبر العجب العجاب . . . وعادت ترطن باللسان ، وتنظر من أعلى إلى الأهل من حولها ، كأنها من طينة غير طينتهم . . .

وتهافت الخطاب . ومن شاهق شموخها راحت تنظر إليهم الواحد فى إثر الآخر وتمط شفتها وتشيح بعينيها الخضراوين الواسعتين فى امتعاض وأنفة ؛ فمن فيهم يستطيع أن يسامتها مكانة ؟ فالمدرس والمحامى والموظف لا يرقون إليها . . . صحيح أنها موظفة بوزارة المعارف . . ولكن باب الترقيات أمامها مفتوح على سعته . . فمن ذا الذى استطاع أو استطاعت أن يبحر مثلها إلى بلاد الإفرنج ؟ أقل القليل . . إذن لتنتظر أن يأتيها من يليق بها حقًّا . . فليست على عجلة من أمرها . . ففسحة الحياة أمامها واسعة . . .

وراحت تتعالى وتشمخ ، وتصف كلامنهم بصفة ، وهى ترده عن بابها معتذرة . . .

ومرت الأيام . . وتبعتها السنون . . وانقطع الخطاب بعد أن وجدوا منها جفاء وردًّا . . .

وفى أواسط العمر ازدهرت بالترقيات . . ولكن جفاف السنين بدأ يدب وئيداً فى أوصالها . . . ووصلت إلى مركز تحسد عليه . . وتسلل إلى حياتها شاب فى نصف سنها أو أقل . . طالب مبتدئ فى كلية الطب . . بديع التكوين والصورة . . كانت أمه صديقتها . . .

وعلى سبيل الترفيه ، اتخذت منه أنيساً وجليساً . . . فلا خوف منه . . ولا تثريب عليها . . فالشاب فى سن ابنها وأمه صديقتها : ؟

وعلى سبيل الجد اتخذ هو حياته معها . . أحبها . بل عشقها . . وكما تتسرب دماء الشباب فى العود اليابس فتحييه وتزهره ، كذلك أحيا شبابه عودها الذى كان فى طريقه إلى الجفاف . فازدهرت وأينعت ، وأصبحت وكأنها شابة فى العشرين . . .

عاشت معه الحياة التى لم تعشها شابة . . بل راحت تعب منها عبًّا . . كأنما تفزع أن تدهمها الشيخوخة ، قبل أن تظفر بكل طيباتها . . .

ولكن الشاب كان ينظر إلى العلاقة التى بينهما نظرة أخرى . . . كان يطمع أن يتخذها زوجة ، بعد التخرج . . لا اعتبار لديه لفارق السن . . أبداً لم يدخل ذلك فى حسابه . . هو يحبها ، ويريدها زوجة وكفى . . .

وعرض عليها رغبته ، فاعتبرتها مزحة تتفكه بها . . أحلام شباب . . بل أحلام أطفال . . . وغضب . فأدنته . وداعبته . . ولم تجد مفرًّا . وخوفاً من القطيعة وعدته . . وعدته وهى تعلم أن الأيام ستغير ما به . . . ولكن الأيام غيرت ما بها هى . . فإذا المزاح ينقلب جدًّا . . وإذا اللعبة تصبح شغلها الشاغل . . .

ومع السنين تكتمل له الرجولة . . ومع السنين — مهما فعلت — تنحدر هى إلى الشيخوخة . . والشوط طويل . . هى تدفعه . . وهو يكبو مرة ، ومرة يطفو على السطح . . .

وبدأ يلعب و يصادق أقران السوء . . . ولكنها مسئولة عنه . أرسلته أمه إلى القاهرة ليعيش فى كنف صديقتها . . وأوصتها به خيراً . . فأسكنته

بنسيونا بجوار بيتها . . للمبيت فقط . . أما وجباته ، وغسيله ، وكل ما يتعلق بملابسه وحاجاته : فعندهم . . فى بيتهم تحت إشراف والدها وأختها الكبرى العانس . . فأصبح فرداً من العائلة . . ولم يكن والدها الشيخ ، الذى يعبدها ، يرى مانعاً من زواجه بها .. فابنته أثيرة على نفسه . . حبيبة إلى قلبه .. وقد فاتها القطار .. وهذا شاب وأمامه مستقبل زاهر .. ومن عائلة طيبة . . فأحبه . وللحقيقة كان الشاب خدوماً . . وكان بالنسبة للعائلة الابن الأصغر المدلل . . يشرف على جميع مطالبهم الطبية ، وغير الطبية ...

وتولاها حزن . حزن أن يفلت من يدها بعد أن زحفت بها السن . . ليال طويلة كانت تقضيها فى التفكير : أتنصف نفسها بزواجها من شاب فى الخامسة والعشرين ، أو هو على مشارفها ؟أإقناعاً لنفسها أم خداعاً لها أن تربط حياتها بحياته ؟ وما مصيرها بعد ذلك ؟ كيف تمر بها السنون ، وهى إلى انحدار ، وهو إلى ازدهار ؟ ثم من يدريها أنه سيعيش لها ، وها هو من الآن يجذبه أقران السوء ، ويلتفون حوله ، ولا تستطيع له خلاصاً ؟ فما بالها إذا تزوجته؟ أسيمكنها التأثير عليه ؟

ليال وليال قضتها مسهدة ، وهو على وشك التخرج .. أصبح رجلا يملى إرادته . . يطلب منها الخضوع . . وهى أحياناً تجد نفسها تخضع ! عجباً ! وأحياناً أخرى تتذمر وتنهره . . فيغضب . وينقطع أياماً . . وتحزن وتنطوى على نفسها .. ويذهب والدها إليه ، يترضاه .. ويعيده .. وتنسى .. وتندفع معه .. وتسمع الضحكات .. ويمتلئ البيت فرحاً وزياطاً ولهواً

بعد موات ... وتحس أن لاغنى لها عنه .. وأن الحياة بدونه مقبرة تقضى فيها بقية عمرها .. أما معه ، فمتسعة رحبة .. كل ما فيها زاه جميل ....

كل صاحباتها يعلمن أنها خطيبته ... وكل صاحباتها ينتظرن يوم تخرجه ، ليرين كيف تتزوج هذه المتعالية المتأبية من شاب فى سن ابنها..

وأوشك على إنهاء سنة الامتياز ، ولكنها كانت سنة مليئة بالمفاجآت.. ولابد إن إقامته فى المستشفى أتاحت له فرصاً كثيرة للعب ! لم تكن على يقين من شيء .. ولكن قلبها كان يحدثها بأن هناك أشياء وأشياء .. فقد تغيرت معاملته لها .. أصبح قليل الاكتراث .. كثير الشرود .. قليل الحضور .. متأففاً متضرراً .. لا شيء يعجبه . ولا نزهة يصاحبها فيها .. معظم وقته يقضيه فى النوم .. لا يحضر إلا إذا ذهب والدها لإحضاره ..!

وراحت تراجع نفسها : هل من الحكمة أن تتزوجه ؟ أو على الأصح : هل من اللائق بها أن تتزوجه ؟

ويراودها الحنين .. ويعنف حبها .. فهو فى أوقات الصفو لايدانيه مخلوق .. وما الحياة بدونه ؟ جدب وموات ... !

وأتاها يطلب أن تستقيل من منصبها الكبير .. تستقيل من عملها الذى أفنت فيه حياتها . ! تستقيل ليتزوجا وتصاحبه إلى محل عمله فى جحر قاص من جحور الريف ..!

— وكيف يكون ذلك ؟ وهل أترك مركزى الكبير بعد كل هذا الكفاح ؟ تستطيع أنت أن تجد عملا هنا فى القاهرة..

— كلا . أريدك أن تكونى زوجة الطبيب فلان .. تعنين بالبيت..

وتلدين البنين .. لا المفتشة فلانة ....

ـ البنين ؟ ! ومن قال لك إنني أريد أبناء ؟! أنا لا أحبهم ..

ـ أما أنا فأعبد الأبناء ..

وأحست بكبريائها الجريحة تقطر دما .. ولفتها دوامة .. يقيناً هو يعلم أنها لن تنجب ولا تستطيع لو أرادت . . . وأفاقت على صوته الأجش :

ـ إذن طريقانا مختلفان . .!

ووجدت نفسها تتنمر وتصيح وقد شعرت بعروقها تنفر بالدماء كاللهب !

ـ وهل خيل إليك أن أترك منصبي المحترم وأذهب خلف ناشئ مثلك مجهول المستقبل ؟ أم خيل لك عقلك أنك ما دمت قد تخرجت طبيباً هكذا ضمنت النجاح . ! والعالم كله تحت قدميك . ! اذهب ياصغيرى إلى حال سبيلك فليس لك فى حياتى مكان . . .

واندفعت إلى حجرتها وأغلقت بابها . . وارتمت على فراشها تغلى .. ولم تسمع الباب وهو يصفق وراءه .

كم من الوقت مر عليها وهى طريحة الفراش ؟ لا تدرى . . فحينما فتحت عينيها كان الظلام يفترش حجرتها .. كثيفاً .. ضخماً ... مهولا . . . .

وأسرعت أصابعها إلى زر النور فوق وسادتها . وتنفست الصعداء

حين بدد الضوء الخافت تهاويل العتمة . . فلم يبق منها شيء ، إلا تلك المرارة فى حلقها . .

وخرق سمعها صوت حركة المرور فى الشارع الكبير ، أسفل نافذتها . إن العالم مازال يسير . . واستجمعت حزنها ونهضت .

الماء لم يذهب بمرارة فمها . . مرارة فمها سرت إلى الماء . . . !

وفى حركات آلية ارتدت ملابسها .. واستقبلت باب الخروج . لا أحد كالعادة يسألها إلى أين .. من طرف عينيها لمحت والدها ، يطل بظهره المحدودب من فرجة باب حجرته ، ثم ينسحب بسرعة .. كلهم هنا ينظرون إليها على أنها رأس البيت .. أختها العانس تسميها « صاحبة المقام العالى » ... لا يكلمها أحد إلا إذا بدأته الكلام ...

أدارت ذلك كله فى رأسها ، وهى تهبط السلم فى بطء شديد . . ركبتاها لا تطاوعانها على أكثر من ذلك . . .

وابتلعتها حركة المرور فى الشارع الكبير .. فتاهت من نفسها حين تاهت عن الأنظار فى الزحام .. وشدت قامتها فى سمت المفتشات . . . من يدرى ؟ الشارع غاص بالناس من كل صنف . ! مدرسات .. تلميذات .. موظفين .. إداريين .. دائماً تنظر إلى العالم على أنه ديوان كبير ..

والمرارة مع هذا لم تغادر فمها . . .

وفكرت فى « خطة » الأسبوع القادم ... واستعرضت شخصيات تلميذاتها السابقات ، ومرءوساتها اليوم .. وبدون أن تدرى ، تراءت

أمامها صور الكثيرات منهن . مهملات . كثيرات الغياب .. متأخرات فى البرامج .. والعذر دائماً : الزواج والأمومة وإجازات الوضع . . . !

وزادت فى ثمنها المرارة .

ووقفت أمام دكان يبيع المثلجات .

وتقدم شاب يلبس قميصاً برتقالياً — ما أسخف هذا اللون على جسد رجل ! — ففتح لها الزجاجة ، ونقدته الثمن فى تأفف صامت ، وأعطاها الباقى فى عدم اكتراث .. أف لآداب هذا الجيل ! ماذا يبقى من التاجر إن فقد الاهتمام بالعملاء أيضاً ؟

وشق الهواء صفير حاد منغم متطاول ، كالجملة الموسيقية تخرج من قيثارة .. والتفتت نحو الشاب باستنكار . . !

ورأته يبتسم وينظر بإعجاب وزهو نحو ركن الدكان ...

قفص أحمر صغير ، بداخله طائر كناريا أصفر اللون ، كأنه حلية من الذهب ، يمد عنقه نحو الأنوار الساطعة تنبعث من ثريا فى السقف ، ويرفع عقيرته بالصداح المرة تلو المرة ، كأنه يحيى النور ، ويناجيه .

وقال الشاب متباهياً بخبرته الواسعة فى الموضوع :

— هذا الأحمق ! تخدعه الكهرباء ، فيظن نورها ضوء النهار فيغنى له . . .

وحدقت فى الشاب طويلا وهى لا تدرى .. حتى ارتبك .

أحمق أو غير أحمق . المهم أن نفسه تفيض مرحاً بالنور ،

فيغنى . . وبإيجاز سألته :

— للبيع ؟

وبغير مبالاة أجابها ، وهو يهز كتفيه :

— كل شيء هنا للبيع . .

وعلى هزة رأسها الصامتة أجاب :

— ثلاثة جنيهات . . . بالقفص . .

وفى صمت أخرجت الجنيهات الثلاثة ، ومدت يدها لتحمل القفص

— دعى هذا الغلام يحمله لك . . .

وهزت رأسها فى حزم ، وحملت القفص الأحمر .. ومشت وسط الزحام . مشدودة القامة لا تبالى من يراها تحمل بسمتها الوقور قفصاً أحمر ، فيه طائر صغير أصفر اللون ، لا يعرف الفرق بين النور الطبيعى وضوء الكهرباء . . . . ويرفع لكل بارقة عقيرته بالغناء . . .

هي والشمس

obeikandl.com

وانحسر الطابور الطويل .. الطويل جداً .. عن امرأة فارعة .. شهباء الشعر . . زرقاء العينين ، زرقة رمادية فى لون المياه الراكدة . . عليها أسمال متعددة الألوان ؛ تصل إلى حذائها الممزق . . . وفوقها ترتدى سترة « بيجاما » رجالى من الكستور المخطط بخطوط حمراء ؛ وفوق ذراعها روب منزلى من القطيفة ، نصل لونه ، فأصبح فى لون قطة رمادية جرباء . . . وقد عصبت شعرها الطويل بإيشارب أزرق لامع ، الشىء الوحيد الذى يشى ببقية من « غندرة » ، لم يستطع الزمن أن يقضى عليها . . . ولولا استقامة فى عودها . . وشموخ فى رأسها ، لظن كل من يراها أنها عجوز فانية . . .

وتطلعت بعينيها الزرقاوين يميناً ويساراً فى توفز .. ورأسها شامخ.. تماماً كما كانت تفعل فى الزمن الخالى . . . والتقت نظراتنا ، وأقبلت تعانقنى .. واستسلمت مذهولة أمام المنظر . . المنظر الذى لم يخطر يوما ببالى أن أراها فيه . . .

وأحرجت إحراجاً شديداً ، ووجدتنى أسألها عن أبنائها وبناتها جميعاً ، وخصصت بالذكر « شيرويت » . فقد كانت كبرى بناتها . بارعة الجمال . وضاءة الوجه . كنجوم السينما فاتنات الحسن . . . فضحكت ملء شدقيها ، وقالت بصوتها المنغم :

— أنا شيرويت . . .

وانتابنى ذهول فاجع ، لم أستطع معه أن أضبط عواطفى ، وأنا أصيح مستنكرة :

ـ شيرويت ؟ ! كلا ! . ظننتك . . . . .

وقبل أن أتم ، ضحكت فى مرارة ملحوظة ، وقالت :

ـ ماما طبعاً ! لو رأيتها ؟ هى الآن أصغر منى سنًّا . . . !

ووجدتنى أتأبط ذراعها فى صمت . واصطحبتها معى إلى البيت . . . .

• • •

هى الابنة الكبرى لعائلة نزحت إلى القاهرة بعد موت والدهم . سبعة أطفال ذكور ، وثلاث إناث يكبرنهم . وأم ثكلى ، وليست بثكلى ! . . فمن يراها يظنها الرابعة بين البنات : شباب التفاتة ، واستقامة عود ، وجمال قوام ، ووضاءة وجه . ثم هى عزوف عن أى عمل فى البيت . تركته بأحماله كلها . كما تركت خدمة الأطفال السبعة للصبايا الثلاث . ! وعكفت هى على السعى يوميًّا ، من الصباح إلى المساء ، على المصالح الحكومية تطالب بمعاش القصر ، الذين تركهم والدهم ، دون مورد ثابت لصغر سنه . . . أو هكذا دائماً كان يقال ، حينما نسأل عن الأم . . أما البيت ففى يد الكبرى « شيرويت » فالصغيرتان فى المدرسة ، وتساعدان قدر استطاعتهما ، حينما تعودان إلى البيت .

قطعة من الجمال النادر كانت شيرويت . أتذكرها تماماً ، حينما كانت تهل بطلعتها فى الشرفة . . ما أكثر من تهافتوا عليها . . بل تهافتوا لطلب يدها . . .

يدها ؟ ! حاشا . . . ومن يخدم الأولاد ؟ ومن يغسل لهم ثيابهم ؟ من يطبخ لهم طعامهم ؟ سبعة ذكور ، بل سبعة آلهة . وضعتهم الأم على عرش البيت ؛ وفوق رءوس الصبايا الثلاث ! خادمات لهم يجب أن يكن ! الصغيرتان سمحت لهما بالذهاب إلى المدرسة ! أما الكبرى ، « شيرويت » فالأولاد مطالبون منها ، بكل ما يلزمهم . . .

هل تبرمت شيرويت ؟ هل تشكت يوما مما تقاسى ؟ !

كلا . فقد وضعتهم فعلا فى عينيها . . الصغير : لم يكن تجاوز سنوات ثلاثا . وأكبرهم فى الرابعة عشرة . الصغير صورة من جمالها الفذ . . اعتبرته ابنها ، وعكفت على تربيته فى حضنها . . يناديها ماما . . ! وبكل جمالها وشبابها وصحتها راحت تدور فى فلك السبعة ، غير وانية أو متضجرة . . حرمت نفسها من متع الحياة لتتيح لهم ملبساً لائقاً ، وطعاماً مغذياً ، ومنظراً يحسدون عليه .

والعمر يمر . . والكدح يضع بصماته على الأيدى الغضة ، والحرمان يمتص الجسد الريان . لكن البسمة لا تفارق شفتيها وهى ترى غرس يدها يترعرع ويزدهر ويصبح شباباً ناضراً جميلا متعة للناظرين . . .

هذا كان حالها حينما تركت الحى منذ سنين وسنين . وانقطعت عنى أخبارها تماماً .

• • •

وعلى المائدة سألتها :

— وبعد ؟ وكيف حال الصبيتين ؟

ورفعت عينيها عن الطبق أمامها ، واخترقتنى إلى مرآة البوفيه من خلفى ، وقالت وابتسامة وضيئة فى عينيها :

— تزوجتا . . .

— وهل رضيت والدتك أن تزوجهما ؟

وهزت كتفيها فى عدم مبالاة وقالت :

— بل تزوجتا رغم أنفها .

— وأين هما الآن ؟

— كل منهما تعيش فى بيتها قريرة مع زوجها .

— والأولاد ؟

وهنا شعشعت الابتسامة ، وانقلبت إلى ضحكة ملأت وجهها :

— أولاد ؟ لقد أصبحوا رجالا ، كل منهم فى مركز يفوق الآخر .

— هل تزوجوا ؟

— جميعاً . حتى الصغير . أتذكرينه ؟

— وكيف لا . . ؟

— له ولد وبنت متعة للعين . جمالهما ليس له مثيل !

— فى مثل جمالك ؟

ومرة ثانية تطلعت إلى المرآة ولاح فى عينيها حنين دافق وقالت :

— بل فى مثل جمال والدهما .

وعكفت على طبقها تأكل بأناقة وتأنٍ . وقدمت لها طبق البفتيك، وأنا أسألها :

— هل أعجبك الخرشوف ؟

ولم تجبنى ، بل راحت تقطع البفتيك بالشوكة والسكين فى سهوم ، ثم وضعت قطعة فى فمها ، وهزت كتفيها وقالت :

— أعجبنى ؟ لقد فقدت التمييز بين الطعوم . .

وسكتت قليلا ثم أردفت :

— منذ زمن طويل . . .

وأحسست بغصة ، وأردت أن أغير الحديث فسألتها :

— ووالدتك ؟ أين هى الآن ؟

فابتسمت دون أن ترفع عينيها عن الطبق وقالت :

— والدتى ؟ والدتى تركت البيت منذ زمن طويل ، طويل جداً . منذ تزوج شقيقى الثانى . أتذكرين كم كانت تحبه ؟

وهززت رأسى علامة الإيجاب فقالت :

— تعيش معه منذ تزوج . فى المنصورة .

— وأنت ؟ مع مَنْ من إخوتك تعيشين ؟

وجلجلت بضحكة مقهورة وقالت :

— أنا ؟ أعيش بمفردى . . . إذا استثنينا الفيران !

ودون أن أدرى صحت :

— بمفردك ؟

وهزت رأسها وقالت :

— بمفردى . فى البيت . بيتنا القديم . وقد تهدم . وفى السقف ثقوب يطل علىّ منها أبناء الجيران ويخيفوننى .. ولكنى لا أخاف . وممن أخاف؟ لقد عشت فى هذا البيت عشرات السنين . صحيح أننى بعت تقريباً كل ما فيه ولم يصبح لدى سوى حجرة النوم . وليست كاملة : سرير ودولاب . المهم أن فرشى نظيف . . ولماذا الدولاب ؟ فكرت أن أبيعه حينما احتجت فى الشهر الماضى أن أعالج ضرسى . وكان يؤلمنى جداً . ولكننى فضلت أن أبيع الكنبة ، فقد أصبحت ولا نفع لها عندى . أما المطبخ فقد بعت كل مافيه . . كراكيب . ليس لها نفع . واشتريت بوتاجاز . بعين واحدة ، لأصنع عليه الشاى. الشاى فقط . فأنا لا أطبخ . لمن أطبخ ؟ سئمت شيئاً اسمه الطبخ من كثرة ما طبخت ... آ كل أىّ شىء.. أىّ شىء جاهز من السوق . لا يهم ما دام الشاى موجوداً . .

وخلال الحديث حولت نظرها نحوى وقالت :

— أمعك سيجارة ؟

وراحت تدخن فى شراهة . . وأردفت :

— أأستطيع أن أشرب فنجان شاى ؟

وبين رشفات الشاى أخذت تتم حديثها دون توقف :

— . . . طلبت من أمى أن تعيش معى . فطردتنى من بيت أخى

وقلت لإخوتى أن يساعدونى لأعيش . فقرر كل منهم جنيهين . ولكن عند التنفيذ انكمش مجموعها – بقدرة قادر – إلى ثمانية جنيهات . يستنفد الإيجار منها أربعة . والباقى . . .

ولم تتم . فقلت :

– ولماذا لا تقيمين مع أحدهم ؟

وهزت كتفيها وقالت :

– أن ألمح تبرما فى عينى إحدى زوجات إخوتى كفيل أن يسمم حياتى كلها . ثلاثون عاماً عشت خادمة . لم يبق فى العمر بقية لإرهاق . . . تعبت بما فيه الكفاية . . بى رغبة فى أن أستريح . . حياتى الآن ملكى . أنام كما أريد ، وأستيقظ وقتما أشاء ، هادئة . وحينما تنفد نقودى أذهب إلى بيت أى منهم وأقضى يومين أو ثلاثة كما يروقنى الحال ، أو على الأصح ، حتى ألمح نظرة تبرم من الزوجة . هنا أضع على جسمى كل ما أملك كما ترين الآن ، وأرحل . . كالبدوى أنا . . . خيمتى ثيابى التى على جسمى ! .

– ولكن . . أيرضى إخوتك أن تعيشى بمفردك ؟

وبهدوء مذهل قالت :

– إخوتى ؟ كل منهم الآن ينعم مع زوجته وأولاده فى بيوت كالقصور . ومن يريد أن ينغص ما بينه وبين زوجته بأخت مثلى ؟ البيوت الجديدة لامكان فيها للأثاث القديم . . !

— ولكنك لست أختا عادية ؟

وهزت كتفيها . وقالت

— ولو . . . .

ثم أردفت :

— لا عليك ! لا تظنى أنى أضيق بهذه الحياة . لقد اعتدتها . ثم أتدرين ؟ . .

وأدهشنى فى نبرتها ما يشى بشىء يشبه أفراح الطفولة حين تكتشف عش عصافير ، وثبتّ فيها نظرى ، فإذا بومضة تتواثب فى زرقة عينيها ، وقالت :

— لقد اكتشفت فى حياة الوحدة وجهاً للحياة لم أكن قد عرفته من قبل ، حين كان البيت غاصًّا بساكنيه . صرت أسمع للصمت وقعا . وأصبحت أجسر الآن أن أغنى .

ولم أملك دهشتى وأنا أسألها :

— تغنين ؟

— طبعاً أغنى . . . أغنى للشمس ! هذه العشرات من السنين لم أرها . كنت لا أفكر فيها إلا كوسيلة لتجفيف الغسيل . الآن بدأت أراها وأحس بها . لا من أجل غسيلى كى يجف ، بل لأنها الشمس . . بدأت أراها وحدها . . كما أنى وحدى . . .

وساد الصمت لحظة . . صمتاً خالصاً . . مرهقاً . . خلت أنى سمعت فيه نبضى ، وقالت وعلى فمها ابتسامة خفيفة جدًّا .

٢٦

– الوحدة ليست شيئاً مخيفاً كما كنت أظن . . . عندما واجهتها ، وحدقت فيها ، وجدتها شيئاً أنيساً . . حينما نعرف كيف نصادقها . .

ولما صافحتنى وأدارت لى ظهرها، كى تمشى عالية الرأس فى أسمالها ، تطلعت من خلفها فإذا الشمس تلاعب ظل خطوتها الخفيفة على الطريق كأن بينهما صداقة من نوع غريب .

obeikandl.com

سرّهما الخاصّ

obeikandl.com

على غير العادة أحست دمها كله يندفع إلى وجهها . وارتدت إلى الوراء . ورفعت عينيها عن الميكرسكوب ، وحدقت — لمدة لحظة خاطفة — كمن روّعها شيء غير منتظر . . حدقت في الكتلة الذهبية التي صارت تحت بصرها . وتحركت الكتلة الذهبية ، وانحسرت ، لتظهر من تحتها عينان كالزمرد ، واسعتان كأنهما بحيرتان ، تنعكس فيهما أشعة الصباح الوليد . وهتفت الدكتورة «سها» عندما تمالكت نفسها :

— ما هذا الكلام يا كوثر ؟

— طبعا لا أريد أن أذهب إليها .

— هكذا ؟ بدون سبب ؟ . .

— بسبب يا ست ماما . سبب كبير ، بهذا القدر . . .

وفتحت بنت الأعوام الخمسة ذراعيها على سعتهما . ثم أردفت بحزم :

— أرسليني إلى مدرسة أخرى من فضلك ياست ماما ! أي مدرسة تعجبك إلا هذه المدرسة !

وانحسر الاضطراب قليلا عن وجهها ، وفرشت ابتسامة عريضة فوق ما تبقى من اضطرابها وجذبت ابنتها من يدها ، وداعبت خصلاتها الذهبية ، وسألتها بمحاولة واضحة للترفق والاستدراج :

— ما الحكاية بالضبط ؟ أهكذا كرهت المدرسة من أول يوم ؟

ألست أنت التى كسرت دماغى ، أنا وبابا ، كى تذهبى كل يوم إلى المدرسة . إلى هذه المدرسة بالذات ، التى ترين سيارتها تأخذ أولاد الجيران ؟

وفتحت الصغيرة عينيها على سعتهما ومدت يديها كمن تقول إنه لا ذنب لها ولا حيلة فيما حدث .

— ولكنى لم أكن أعرف يا ماما . . . لم أكن أعرف !

— لم تكونى تعرفين ماذا ؟

— لم أكن أعرف أنهم أغبياء إلى هذا الحد . . .

وتراءت أمام عين الصغيرة ساعة الصبح فى بداية أول درس وقد وقفت الأبلة تنادى الأسماء . . أول يوم فى المدرسة وكل شىء زائط . أشبه بمولد ، ليس له صاحب ! . . وتكرر الأبلة اسم كل ولد أو بنت أكثر من مرة ، إلى أن ينبهه أو ينبهها أحد ، ويذهب إلى الأبلة ، وتضعه فى كرسيه . واستمر هذا المولد إلى أن وصلت الأبلة إلى حرف الكاف ، ونادت .

— كوثر سامح . . .

وسمعتها كوثر جيداً ، والتفتت بفضول لترى من هذه التى تشاركها اسمها . . ولم يرد أحد ، وصاحت الأبلة مرة أخرى تنادى :

— كوثر سامح . . . !

ولم يرد أحد ، وانتقلت الأبلة إلى اسم آخر ، وثالث ، وفى النهاية بقيت هى وحدها . وسألتها الأبلة .

— وأنت ما اسمك ؟

— كوثر .

وبصبر نافد قالت لها :

— بح صوتى وأنا أناديك . مائة مرة ناديت : كوثر سامح . كوثر سامح . لماذا لم تردى ؟

واتسعت حدقتاها دهشة واستنكاراً ، وقالت محتجة على هذا الافتراء الواضح :

— هذا ليس اسمى !

— طبعا اسمك . ليس هنا كوثر غيرك . . .

— أنا كوثر صبرى . . .

— اسمك فى الأوراق كوثر سامح .

ونظرت الصغيرة إلى وجه الأبلة الذى ملأه التجهم ، وظهر عليه التوتر والإرهاق رغم أننا فى أول النهار ، وتململت على قدميها لتريح قليلا حملها الضخم الذى تكور فى بطنها ، وظهر عليها الضيق . وقلبت الصغيرة بصرها فى طول الأبلة وعرضها وتكورها ولم تجد بارقة رجاء ، فانفجرت باكية . . . وخفت الناظرة على صوتها . . وشرحت لها الأبلة الموقف . وسحبت الناظرة كوثر من يدها ولاطفتها . . . وانقادت كوثر للظرف واللطف ، واندمجت مع الفصل فى اللعب والأناشيد ، ولكنها لم تنخدع . وجدت تحت لطف الناظرة نفس الإصرار على أنهم يعرفون اسمها أفضل مما تعرفه هى !

ورفعت كوثر نظرها إلى أمها وقالت بلهجة الواثقة بموقفها :

ـ أهم مجانين يا ماما ؟ ما هذا الاسم الغريب الذى يريدون كلهم إلصاقه بى ؟

وطرفت الدكتورة سهى بعينيها ، وتجدد تدفق الدم إلى وجهها . هذا ما كانت منذ زمن طويل تحسب حسابه . ولكن ما حيلتها « صبرى » هو الذى أصرّ . . . ترك الموقف كلغم يحركه الزمن سنة بعد سنة . . . كأنه يمكن أن يتبخر ، ولكن ها هو الآن قد انفجر . . .

وأرخت أجفانها بأهدابها الطويلة وهى تحاول عبثا أن تطرد الصور التى أطلقها الانفجار من قمقمها فى قاع البحر ، تتواثب حولها كالأشباح .

رباه ! كيف يمكن أن تمتزج السعادة التى لاحد لها بالأسى الذى لا حد له ؟

كانت تعد الماجستير عندما تزوجته . كان وسيما كالصبح . رقيقاً كالحلم . عطوفاً صافياً كأنه أسطورة . وبدأت كوثر تدق باب الحياة ، جنينا ينتظرانه معاً بكل أحلام الشباب . وكل أفراح الحب . . .

وكانت جالسة يوما إلى ميكرسكوبها هذا ، تسجل ملاحظاتها على عينات من الشرائح ، حين رن جرس التليفون . . . وفى لحظة تقوض كل شىء . دهمته سيارة وهو خارج من النادى . كان شغوفاً بالتنس . وكجسم بلا روح . كحياة بلا معنى وبلا أمل ، واصلت وجودها . وقد انحصر الكون فى شرائح تحت الميكرسكوب . ودقات الحياة الصغيرة

على جدران بطنها تتلقاها بضيق واكتئاب . ترى لماذا تصر هذه الخليقة الجديدة على أن تدق باب الحياة لتدخلها يتيمة ؟ . .

أهى الصدفة ؟ أهى جذوة الحياة الكامنة فى أعماق شبابها ، تحت رماد النكبة ؟ أهى عصا ساحر ، أخرجت من ظلمة اليأس هذا البصيص ؟ لا تدرى ! لقد وجدت نفسها بين يوم وليلة محاصرة . كلما أمعنت فى النفور ، تعقبها باهتمامه ورقته ، وصبره الواثق . وشيئاً فشيئاً ، بعد أن أدلت اليتيمة الصغيرة على الدنيا بثلاثة أشهر ، بدأت جدران الضباب الأسود يتغير لونها ، ليحل محلها ضباب أبيض ، كثيف نعم ، ولكنه مثل كل ضباب — مهما كان كثيفاً — لابدّ مع الوقت ومع إلحاح الشمس ، أن يخف . ويشف . . .

ودخل صبرى حياتها قبل أن تتم كوثر عامها الأول . . . كأنه فاصل جديد من معزوفة قديمة تخللتها فترة صمت . . وجدت عود شبابها ذات صباح ، تعلوه ورقة خضراء جديدة . . أنكرتها فى البداية ، وتجهمت لها . . ولكنها بعد قليل ، رأت عندليباً يأوى إلى الغصن المورق ويغنى . . ووجدت نفسها — على تجهم ملامحها الظاهرى — تفتح له قلبها ، لأن اللحن الجديد لم يكن جديداً تماماً . . كان تجديداً للحن قديم عزيز ، هو كل حياتها . . .

وفى تسلل العافية بعد السقم الطويل ، سرى حنانه وحبه فى أعطافها . . ومرة أخرى أحست الحياة تضج فيها باكتمالها الطاغى . . وركنت إليه . . .

وجلسا متجاورين . يعلمان الصغيرة على حجرهما الكلام . ويصغيان لبغامها الشجيّ :

ــ با . . با . . با . . با . . .

ونظرت إلى صبرى وقد طفر الدمع إلى عينيها .. فأحاط كتفها بذراعه . وهدهد ذراعها بأصابعه فى رفق ، ولم تكن بحاجة إلى أن تقول شيئاً . . لولا ما فى طبعها الشكور من صراحة :

ــ الحمد لله . . . الذى كتب لهذه المسكينة ألا يخلو لسانها الصغير من كلمة « بابا » .

فزوى ما بين حاجبيه ، ومال إلى الأمام ليواجهها فى عتاب :

ــ مسكينة ؟ وهل يخالجك شك فى أنها منذ الآن . . . وعلى الدوام . . . ابنتى ؟ والمسألة ليست كلاما . . . صدقينى !

وأسرعت تضع كفها على فمه :

ــ إنما عنيت أنها كانت خليقة أن تكون مسكينة . . . لولا أنت ! أليس من حقى أن أشكر الله لأنه صنع المعجزة ، لى . . . ولها . . ؟

وتمر سنتان ، ويدق أحشاء سهما خلق جديد ، ومع دقاته المؤذنة بالحياة ، بدأت المخاوف تراودها : ترى ماذا يصير إليه أمر كوثر ، عندما يأتى هذا الأخ ــ أو الأخت ــ بعد شهور ؟ ما شكت فى أن صبرى سيرعاها ، بكل ما جبل عليه من شهامة وسخاء نفس . . . ولكن البشر بشر . والولد من لحمه ودمه شىء آخر . . . بيد أنها لم تلبث أن قالت لنفسها :

ـ وهل فى الإمكان أبدع مما كان ؟ إنه مهذب الفؤاد . ولن يشعرها بغربة . ثم هب أن بعض التفرقة اللاشعورية نجم مع الأيام ؟ فماذا باليد تملكه لها ؟ أليس ذلك خيراً من اليتم الأجرد ؟

وآن للخلقة الجديدة أن ترى النور . وجاءت ضحى . . . وراحت من طرف خفى ترقب مشاعر صبرى : كان فرحه بالوليدة جارفاً . ولكن لم يستغرقه . فى حرص شديد كان ينبهها ألا تفرط فى إيثار ضحى بحنانها حتى لاتغار كوثر . . . وصار يخصص معظم وقته فى البيت لتنمية صداقته بكوثر . يلاعبها ويحدثها وكأنهما ندان . ويحكى لها الأساطير . ويتنزه معها فى الحديقة الصغيرة بصبر ليس له حدود .

ومع هذا حدثها عقلها أن الغد قد يختلف عن اليوم . وإن كان حبيبك عسلا . فلا تلعقه كله . وتلطفت يوما وهى تقول له :

ـ . . . ماما حدثتنى فى أمر كوثر . وأعربت عن رغبتها فى ضمها إليها ، تخفيفاً للعبء على . . .

واحمرت عيناه وقطب جبينه وقال باقتضاب :

ـ لا تطرقى هذا الموضوع مرة أخرى . كوثر ابنتى ، وستظل ابنتى . . .

ـ ولكنها ، يوما ما ، لابد أن تعرف الحقيقة . . . ربما أحدث ذلك فى نفسها أثراً إن جاءت معرفتها متأخرة . . .

ـ دعى هذه المعاذير . يجب ألا يكدر طفولتها إحساس بأى اختلاف بينها وبين أختها أو إخوة لها قادمين . . أما زال قلبك فى شك من أمرى ؟

ولم تجبه بلسانها . . رفعت فى صمت أطراف أنامله إلى فمها . . . ومنذ ذلك الحين لم تعد إلى هذا الموضوع . . ولكن هاهى الأيام مرت . وها هى الصغيرة تقف مفتوحة الساقين . وذراعاها وراء ظهرها ، شاخصة البصر إليها . . . تطالبها بجواب شاف :

— ماما . ماما . لماذا لا تجيبيني ؟ أهم مجانين ؟ أيعرفون اسمى خيراً مما أعرفه ؟

وابتسمت الدكتورة سها . وطرفت بعينيها مرتين أو ثلاثاً قبل أن تجيبها :

— دعينا من هذا الآن . قولى لى أولا ماذا صنعت اليوم فى المدرسة ؟

— لا شيء . لعبنا . غنينا . ولكن هؤلاء المجانين . . . يجب أن يصححوا اسم بابا . وإلا — وحياة بابا — لن أعود إليهم !

ومالت برأسها الذهبى إلى كتفها الأيمن فى عناد تعرفه فيها أمها جيداً .

وحارت بم تجيبها . ولكن وفّر عليها حيرتها صوت آلة تنبيه سيارة شق الصمت . وتركتها كوثر وهرعت كالمجنونة إلى الخارج :

— بابا . . . بابا . . .

ودق قلب سها بعنف لوقع هذا النداء الذى يتقد بالحب والتعلق وفرحة الطفولة الواثقة كأنها لم تسمعه منها كل يوم مرات . فاليوم له وقع ينذر بالخطر : أتراها آخر مرة تقول هذه الكلمة بهذا الصدق ؟ وهذا الصفاء ؟ وهذا اليقين ؟ وهذا الجنون ؟

وأسرعت فى أعقابها . على سلم الفيلا أدركتها . وهى تلقى بنفسها فى أحضان صبرى . وهو يصعد من الحديقة . . .

ورفع صبرى بصره إلى سها يحييها . بل يقبلها بعينيه . وكوثر مدفونة الرأس فى صدره . . وعبرت له بتحياها عن قلقها سافراً . وهز رأسه يستفهم منها فى صمت . وكان قد أتم الدرجات التسع ووصل إليها . ونزلت كوثر إلى الأرض . ومالت سها على خده تقبله كعادتها حين يأتى . ولكنها خطفت القبلة خطفا . وهمست فى أذنه بكلمتين :

ـ اسم أبيها . . !

ولأول وهلة لم يفهم شيئًا . لم يكن ببياله إطلاقاً أن هناك مشكلة تتعلق بأبيها . ولكن بعد لحظة خاطفة اتسعت حدقتاه اتساع التذكر المفاجئ . وأومأ إلى سها برأسه : « لا عليك . . دعى هذا لى »

وعادت سها إلى ميكرسكوبها وشرائحها . . تنظر . وتطيل النظر . . ولا ترى شيئاً . .

وفى ركنهما الأثير فى الحديقة ، جلس صبرى مع كوثر . وهى تحكى له قصتها مع أولئك المجانين فى المدرسة . . .

ـ أهكذا صنعوا ؟ دعينى إذن أحكى لك الحكاية . قد تجعلنا نفهم سر هؤلاء المجانين !

ووضعت كوعها على فخذه وجلست تصغى ، وهو يحدثها عن شاب لطيف . طيب . محبوب . . . وما جرى له فى الدنيا . . . وهى

مرهفة الآذان . دقيقة . دقيقتين . عشر دقائق ، غارقة فيما يقول ، ثم رفعت عينيها إلى سماء سبتمبر الصافية وهتفت فجأة تقاطعه :

ـ . . . ذهب إلى السماء أين ؟ فى القمر ؟

ـ ذهب بعيداً جداً . . وراء القمر . . ووراء النجوم . . . حيث يعيش الملائكة فى السماء البعيدة . . .

وشرد بصرها لحظة ، وقالت :

ـ ولكنى لا أراه !

ـ طبعاً . أما هو فيرانا . روحه اليوم فى عيد . لأن ابنته كبرت . وذهبت إلى المدرسة . وأصبح اسمه يحيا كلما نادوها : كوثر سامح . .

وتجهم وجهها لوقع الاسم مرة أخرى . هنا فى البيت . وغامت عيناها كسماء فبراير . وضاق ما بينهما وهى تقول له :

ـ لا أريد هذا الاسم . أنت بابا .

ـ طبعاً يا حياتى . . . أنا أيضاً بابا . . وهو بابا . . اسمه فى شهادة ميلادك . . . كل الناس لهم بابا واحد . . وأنت لك اثنان ! واحد فى المدرسة . وواحد فى البيت !

وطبع على خدها قبلة يتمنى أن تكون فصل الخطاب .

ولكنها أبعدت وجهها عن فمه . لتلتفت إليه وقد مال رأسها إلى كتفها الأيمن :

ـ أنا لا أعرف إلا « بابا » واحداً . . . فى البيت . . وفى كل مكان . . .

obeikandi.com

ونقلها إلى حجره ، وشد ذراعيها حول عنقه ، حتى لا ترى وجهه المضطرب وقال لها :

— ولكن الناس يعرفون أن لك اثنين . واحداً للمدرسة . وواحداً للبيت !

— لنقل لهم إنهم مخطئون . قل لهم أنت هذا . قل لهم إنك أنى الوحيد . الآخر لم أره . لا أعرفه . . .

— مهما قلنا . هناك شهادة ميلادك يا حبيبى . . . .

وسكتت لحظة كمن ترى أمامها طريقاً مسدوداً . ثم صفقت بيديها طرباً وصاحت :

— عندى فكرة ! . أختى ضحى صغيرة لا تعرف عقلها . أعطنى شهادة ميلادها وأعطها شهادة ميلادى !

وقهقه ضاحكاً ، ووضع سبابته تحت ذقنها الصغير ، وقال لها :

— فى هذه الحالة سيكون عمرك سنة . وتبقين فى البيت . وتذهب هى إلى المدرسة . أهذا معقول ؟ أيقبلونها بالبزازة والمشاية . وهى تبلل ثيابها كما تعلمين ؟ أين هذه الصغيرة التى لم تعرف عقلها من كوثر العاقلة الذكية النظيفة ؟ أممكن هذا ؟

وأسقط فى يدها . وضاقت الدنيا فى وجهها . وانفجرت فجأة باكية :

ـ لا شأن لى بهذا كله . أريد أن يكون اسمى كوثر صبرى . . ألست بابا ؟

وابتلع ريقه واستجمع جأشه وقال :

ـ عندى أنا فكرة أحسن !

وأشرق وجهها وسط دموعها . ونظرت إليه بأمل . . .

ـ . . طبعاً أنا بابا . ولكن سأخبرك بسر خطير لا يعرفه إلا قليلون جداً : كثيرون من الكبار فى داخل كل منهم حمار صغير جداً . حمار لا يستطيع أن يرى الأشياء ولا يعترف إلا بالمكتوب على الورق . كلما قلنا له شيئاً يخالف ما فى الأوراق هز رأسه بإصرار ، ورفض أن يفهم ما نقول . . .

وأنزلها عن حجره ، وجثم على أربع فوق الأرض ليقلد الحمار العنيد وأخذ يطوح رأسه بحركات متصلبة يميناً ويساراً ، وهى تضحك ملء شدقيها . . .

ـ أيمكن لحمار كهذا أن يفهم ما نقول ؟ مستحيل ! الناس معظمهم سيكذبوننا ، ويصدقون شهادة الميلاد ، مهما قلنا لهم إنى بابا! فهل نجعل عقلنا بعقلهم ؟ طبعاً لا ! ليكن إذن لنا سرنا الخاص . سرنا الذى لا يعرفه إلا أنت وأنا . . . هم يقولون ما شاءوا ، كوثر سامح . ونحن وحدنا نعرف أن الاسم الحقيقى كوثر صبرى . سرنا الخاص . نحن فقط نعرفه ولا يعرفه سوانا . اتفقنا ؟

ومد لها يده الكبيرة لتشد عليها إبراما للاتفاق .

ولمعت عيناها ووضعت يدها فى يده .

وفى الصباح . وقفامعاً على باب الحديقة . وعندما مرت سيارة المدرسة ونادت الضابطة :

— كوثر سامح ؟

نظر صبرى إليها . وغمز بعينه غمزة التواطؤ على السر الكبير . وبفرحة « اللعبة الجديدة » غمزت له بعينها أيضاً . وتقدمت إلى السيارة بخفة العصفور . . . .

obeikandl.com

أشياء صغيرة

obeikandl.com

كلما فكرت فى هذه المسألة شعرت برغبة فى الابتسام . . لا أدرى أهو ابتسام سرور ، أو ابتسام غيظ ، أو ابتسام أسى ؟ . . مجرد ورودها إلى ذهنى يجعلنى أتساءل : هل أنا مغفلة حقًّا ، أوحصيفة ، أو أن حماسة الشباب أولا — ثم أشواقه بعد ذلك — هى التى دفعتنى إلى هذا المصير ؟ ! . . .

كان بيتنا بيتاً ريفيًّا . . أقصد رينى التفكير ، رغم أن إخوتى وأخواتى — على الخصوص — بلغن آخر مراحل التعليم وتدرجن فى الوظائف . . وتزوجن زيجات مشرفة . . ويعشن مع أزواجهن على آخر طراز العصر . . . وكنت أنا صغراهن ، والفرق بينى وبينهن كبير وكان يكبرنى ثلاثة ذكور وصلوا إلى وظائف محترمة ، وولد يصغرنى بسنوات فى الإعدادية . . هؤلاء الذكور جميعاً كانوا يعيشون معنا فى البيت . . .

درجت على أن الذكر له حقوق لا آخر لها على الأنثى . . وكبرت وهذا الاعتقاد يلمس وتراً حساساً فى نفسى . . فأنا أرى والدى يعامل والدتى بنوع من الخشونة الآمرة . . وهى تطيعه بلا تردد ! كانت الخشونة تصل أحياناً إلى التعسف بلا مبرر إلا الرغبة فى السيطرة . . وكنت أرى والدتى — أحيانا كثيرة — تبكى بمفردها دون أن تفصح لى عن السبب فأغلى فى أعماقى . . ما الذى يجبرها على العيش معه ؟ كانت

عاقلة . . وأحببتها . وتمنيت لو أفديها بنفسى . . ومن هنا تكونت عندى بذرة الثأر للأنثى المهضومة الحق . . وتحولت البذرة إلى نبتة . . نبتة صغيرة دفعها إلى النمو بسرعة معاملة إخوتى . . . فهم المسيطرون المتحكمون سواء أكان أبى موجوداً أم على سفر . . . وكنت أتقبل منهم ذلك وأنا صغيرة . فتربيتى كما قلت ريفية . . ولكن حينما كبرت والتحقت بالجامعة أصبحت أضيق بتصرفاتهم أشد الضيق . . خصوصاً وأننى كنت مثال الفتاة المدققة فى تصرفاتها . . أصلى الفروض جميعاً . . وألبس كما تلبس والدتى . لا كما أرى لدانى . . ولا أضع المساحيق . . . وللحق كنت جميلة بل جميلة جداً . . ومطمع كل شاب فى الجامعة وخارجها . . ولكنى استطعت أن أوقفهم جميعاً عند حدهم . . . حتى كان يضرب بى المثل . . ويخشى منى . . وتتوقانى الطالبات قبل الطلبة لصراحتى وخشونتى . نعم خشونتى ! فقد كنت أثور لأى بادرة تبدر من الطالبات يشتم منها ميوعة . . ومع ذلك لم أسلم من فظاظة إخوتى . . وإملاء شروطهم بما يجب وبما لا يجب . . وكنت أرى منهم تصرفات لا تعجبنى ومع ذلك تغتفر لهم ، لأنهم رجال ولا يعيبهم شىء !!

رجال . رجال . رجال .

هذه الكلمة أصبحت تشكل فى نفسى مأساة . . .

ما الفرق بين ساوك غير محترم يرتكبه رجل أو ترتكبه امرأة ؟

لماذا يعاب على المرأة ما يغتفر للرجل . . ؟ أين إذن المساواة التى

ينادى بها من فوق المنابر . . وفى الجمعيات النسائية ؟ . .

وكنت أناقشهم وأحتد فى المناقشة . . . فينبرى لى أصغرهم يسفه كلماتى :

ـ يا حميقاء ! أى مساواة ؟ إنها حبر على ورق . . الفرق كبير . . عظيم . . بين رجل وامرأة . حتى فى النطق . أما ترين كيف تنطق كلمة رجل . . بالتفخيم . . بعكس كلمة امرأة . . إذا كنت لا تفقهين هذا المعنى . . فلأنك . . . .

ويضحك ملء شدقيه ويستلقى على ظهره فوق المقعد ويقول بصوت آمر :

ـ أعطنى كوب ماء ! بسرعة ! ما خلقت المرأة إلا لتخدم الرجل وترعى شئونه . . مهما كانت الظروف . . .

وأحس بيافوخى يكاد ينفجر ، وأنا أصيح فيه :

ـ بل إن المرأة أشرف من الرجل . . والمساواة ستثبت لكم أنها أقدر على إتيان الأعاجيب . . .

ويتدخل الأكبر ليقول :

ـ أى أعاجيب ياخرقاء ؟ أما قرأت التاريخ ؟ تاريخ الخليقة منذ القدم ؟ ما من امرأة استطاعت أن تثبت جدارة فى شىء إلا وكان الرجل مطلبها الأول . . ولا أريد أن أذكرهن لك بالاسم . .

وقبل أن أتفوه بكلمة يصيح الثالث :

ـ مساواة ؟ بماذا تلغطين . . ؟ أىّ فتاة تستطيع أن تذهب

لتطلب يد شاب مهما رغبت فيه ؟ بل هو يختارها ويأخذها عنوة شاءت أو لم تشأ . ! ما قولك فى هذا أيضاً ؟

ولم يكن أمامى إلا أن أهزأ بكلماتهم وأقسم لهم أن الفتاة ستأخذ حقوقها كاملة . . إن لم يكن باللين فبالقوة . . وستختار من يعجبها . . ستكون مساوية للرجل فى كل شىء . . . . حتى فى أعمال البيت . . ستقسم بينهما قسمة عادلة . !

وصاح الصغير العفريت :

ـ أسيلد مثلها أيضا . . ؟

ولم أجبه . . وسمعت قهقهاتهم وأنا أندفع كالقنبلة إلى كليتى . .

ووصلت وأنا فى حالة من الثورة لا تقف عند حد . . وجمعت نفراً من صديقاتى ممن لهن آرائى ويعشن فى أجواء تماثل جوى البيتى . . ورحت أخطب فيهن . ـ وكنت خطيبة مقنعة بالفطرة ـ فى حتمية إنشاء جمعية من الفتيات الثائرات على وضع المرأة الراهن لتنال حقوقها كاملة . . . وأول هذه الحقوق : عدم تحكم الرجل فى المرأة ، مهما كانت الأسباب . . . وإنما هى المساواة الكاملة ؛ بلا تمييز أو إجحاف . . .

وكان لدينا أستاذ شاب يعطف على قضية المرأة . . . ونتجادل معه دائما فيقنعنا أو نقنعه . . وكان معقولا جداً . . . وله باع فى هذه المسائل . . وشخصية قوية . . .ومشترك فى عدة جمعيات . .

وذهبنا إليه . . .

ذهبت بثورتى كلها . . وغضبى كله . . ورحت أناقشه فى حدة . وأسفه آراء الرجال . . وأنعتهم بنعوت غير طيبة . . ولم أكن أستطيع التحكم فى كلماتى . . ولا أدرى ما فهت به بالضبط . . .

كان يستمع فى هدوء . . باسما . . لم يقاطعنى . حتى انتهيت من إعادة كل ما كان من حوار بينى وبين أخوتى . ثم قال فى صوت خفيض :

ــ أيسرك فعلا أن تنعدم الفوارق بين الرجل والمرأة تماماً ؟

قلت وأنا لا أزال فى حالة الغليان :

ــ نعم يسرنى . . بل يثلج صدرى . . !

فأجاب وهو ينظر إلىّ نظرة لم أعهدها فيه :

ــ وما رأيك فى السعادة التى تستشعرها المرأة بحماية الرجل الذى يصطفيه قلبها ؟ أيستوى عندك القوىّ القادر المهيمن . والخرع الجبان المتهاون ؟

وصحت :

ــ كيف ؟ ألا تكون المساواة إلا إذا كان الرجل كما تصفه بالتهاون والجبن ؟

ــ كلا . وإنما قصدت أن المرأة تعجب دائماً بالقوة والقدرة فى شخصية الرجل . حتى إنها تخضع له طواعية . . .

فقلت وقد بدأ شىء من الهدوء يتسرب إلى نفسى :

ــ لا أنكر هذا . إلا إذا كانت طواعية الإذلال . فالموت حينئذ أهون . . .

— معاذ الله . . . ومن ذكر كلمة إذلال هنا ؟ إن لم يكن التفاهم والحب هما وسيلة الرجل إلى قلب المرأة . . فلن يكون التسليم والطاعة هما سلوك المرأة إلى قلب الرجل . . .

وتبددت سحب الغضب في أعماقي وصحت :

— كلا لست من أنصار التسليم والطاعة . . مهما كان التفاهم والحب . . . وإنما أنا أريدها مساواة عادلة : ليس فيها جبر ولا غرض سيطرة . . . وأعتقد أننا لسنا مختلفين . .

وانصرفت فجأة : قبل أن يفلت زمام الغضب الذي أخذت مراجله تغلي في صدري . . .

والآن : أصبحت زوجة . . زوجة لهذا الرجل نفسه . . فلم يمر العام حتى أتى بيتنا خاطبا . . . وقبله والدي على الرحب والسعة . . أما أنا . . . ماذا أقول ؟ شيء أقوى مني كان يجذبني إليه . . شيء كنت أسميه إعجابا شديداً ، وأنا أجلس قبالته في مقاعد الدرس في سنتي النهائية . . . .

وأحببته . أحببته بكل أشواق الشابة التي لم يفتح قلبها لحب قبله . . والآن . .

ألمح في وجهه أحياناً بعض التجهم لتصرف من تصرفاتي . .

ثم لا يلبث أن يقول بعنف :

— قلت لك إن مثل هذه الأفاعيل لا تليق بك ..

ويحتدم النقاش بيننا .. وإذا بصوته يعلو على صوتى ليقول :

— يجب أن تعلمى أننى الرجل .. وأننى أدرى منك بما ينبغى ...

وأبلع ريقى . وأسكت على مضض ...

وهناك أشياء صغيرة كثيرة فى البيت آنف أن يقوم بها هو ..! أنا التى آنف لا هو ..! حتى كوب الماء قبل أن يطلبه .. أجد نفسى — بدون أن أشعر — أسرع بإحضاره له....!

عجباً ! ما الذى حدث لى ؟

هل أنا مغفلة ؟ هل أنا حصيفة ؟ أو هل تنكرت حقاً لكل ما كان يغلى فى عروقى ويثور فى مخى وأعصابى من مبادئ وشعارات ؟ !

وابتسم ابتسامة نصفها سخرية من نفسى ، ونصفها إغضاء وتسامح وسرور قرير ...

لا شىء من هذا كله ....

كل ما هناك أنى أحببته ....

وهذا يغير كل شىء ....

الشاربُ المعقوف

obeikandl.com

سكينة المساء تفترش البيوت . . . وطفت على لسانى . وأنا أرنو من الشرفة . إلى الشوارع التى توارت مصابيحها . لتترك المجال للنجوم المتناثرة كأحلام المشتت . . طفت صيحة مهموسة :

ـ ياقاهرتى العزيزة . . .

وجذبتنى من ثوبى يد صغيرة ، تنتزعنى من أحلام يخامرها الشجن المكتوم . . يد ابنتى « زهراء »

ـ ماما . لماذا هذا الظلام ؟

ورفعتها وقبلتها وقلت لها فى مراوغة تخامرها فرحة تريد أن تطغى على الشجن . وعلى الظلام . وعلى السكينة :

ـ الليل جميل هكذا . يا صغيرتى . فى ضوء القناديل التى أوقدها الله ألوفاً . . ألوفاً كثيرة بغير عدد . . . بعيداً . . بعيداً جداً ، لا يستطيع أن يطفئها أحد . . .

ولكن البنت زوت ما بين حاجبيها وقالت بإصرار :

ـ أكره الليل . . . وأكره أيضاً عم عزام !

وجاء دورى أنا لأقطب حاجبى وتتملكنى الحيرة ، وقد أنسانى « عم عزام » . باسمه الغريب على سمعى ، ما كنا فيه من حديث الليل . . .

ـ عم عزام ؟ من يكون عم عزام ؟

فتحت زهراء عينيها على سعتهما ، وقالت بدهشة ليست لها حدود :

— عم عزام ! . . . بواب الخصانة . . .

— إيه ؟ ماذا يصنع لك عم عزام هذا ؟

وضمت شفتيها القرمزيتين الصغيرتين ، وقالت ببطء :

— يخيفني . . .

— يخيفك ؟ كيف ؟ هل يقول لك « بخ » ؟

— بلسانه ؟ لا ! إنه لايقول شيئاً أبداً . . . ينظر فقط بعينيه « من تحت لتحت » وأنا ألعب . . . وشاربه الكبير الأسود الملفوف المنفوش يتحرك أحياناً ، ولكنه لا يقول شيئاً . . . ومتى رأيت شاربه يتحرك ، أثبت في مكاني وأكاد أصرخ ، لولا أنني لا أجد صوتي . . . فأسكت ، وأتسلل ببطء ، بعيداً عن شاربه المخيف . . .

وقبلتها . . . ورفعتها فوق ذراعي ، وأنا أفكر ماذا أقول لها .

الصغيرة لم تر أحداً في أسرتنا له شارب ، حتى أبي أنا — جدها — حليق الشارب . وأبوها كذلك وأنا أيضاً بالطبع ! والشوارب التي تراها على وجوه الزوار عادية ، رفيعة أو مقصوصة ولكن يبدو أن للشارب « الملفوف » كما تسميه ، أو المعقوف المنتفش ، له وقع آخر . . .

ودبت في قلبي خفقة خوف بعيدة . . . بعيدة جداً . . . هل للوراثة دخل فيما أصاب البنت ؟

ووجدت نفسي أضحك وأنا أتذكر تلك « الوراثة » أضحك

بصوت مرتفع . . . فوضعت البنت يدها تحت ذقنى . وهى جالسة على ركبتى . وقالت :

— ماما . . ماما . . ماذا يضحكك ؟ . .

ووجدت نفسى أقول لها :

— لأنك تخافين من شىء لا يخيف . يا صغيرتى . . . فهذا الشارب الملفوف المنفوش . ليس إلا « باروكة » . . . يضعها بعض الرجال للزينة . . .

— زينة ؟ . . غير معقول يا ماما !

— وهل كل الباروكات التى تضعها السيدات على رؤوسهن . كالطرطور . أو الخرشوف . زينة معقولة دائما ؟ . .

— وهل يخلعها حين ينام ؟

— ربما !

— ويكويها عند الكوافير ؟

— جائز . . . .

وانصرفت الصغيرة إلى مشاهدة برنامج فى التليفزيون ، وتركتنى لسكينة المساء . . وللذكرى التى أضحكتنى عن أثر الوراثة فى خوفها من شارب « عم عزام » . . الذى حولته كذبتى البيضاء إلى مجرد باروكة . . .

ترى ماذا يقول « عم عزام » هذا لو درى بما قلته لصغيرتى ؟ . . .

وقفز إلى ذهنى منظر « زهراء » وهى تقف أمام هذا العملاق

الصعيدى ، بقامتها التى لا تزيد على ثلاثة أشبار ، وتسالله بمنتهى الجد .

ـ هل تخلع شاربك يا عم عزام قبل أن تنام ؟

وأغربت فى الضحك . . .

ولكنى توقفت فجأة ، وأنا أسأل نفسى :

ـ أليس ذلك الشارب المعقوف الآخر . الذى ربما ورثت ابنتى عنى الخوف منه . . . كان أيضاً أشبه بال . . .

وعضضت على شفتى السفلى . وتسللت إلى الشرفة مرة أخرى . فى هذا المساء من أمسيات أمشير الدافئة . التى كانت جدتى تقول إنها لحرارتها . غرت الأعرابى الساذج فباع حرامه قبل الأوان . . .

ومع الليل عادت إلىَّ أحاسيسى القديمة عن ذلك الشارب المعقوف المنفوش الآخر . . . قبل سبع سنين . . .

كم كنت أخافه حقًّا . . .

كنت ووالد « زهراء » مازلنا فى دور « لعبة المساكة » التى كنا نسميها « لعبة الحب » بمناورات اللقاء أحياناً ، والاحتجاب أحيانا أخرى . . حسب التساهيل ، أوحسب ظروف البيت ، وفرص الانطلاق إلى الشارع . . . ربما لشراء شىء . . وربما لزيارة الخياطة . . وربما للمذاكرة عند هذه الزميلة وتلك . . . وكان ممدوح ـ والد « زهراء » ـ هو القاسم المشترك الأعظم وراء كل هذه المعاذير . . .

ولم يكن لنا فى ذلك الوقت ، منذ سبع سنين فى الضاحية التى

كانت يوماً ما هادئة قبل ذلك بعشرين سنة . ثم أخذت تكتظ وتعانى من آثار الانفجار السكانى فى المدينة الكبرى — لم يعد لنا من ملاذ بعيد عن العيون . إلا الشوارع الصغيرة المحيطة بشارع العروبة . على أطراف الضاحية . حيث الحديقة الكبيرة فى وسط الطريق الواسع ، وحدائق الفيلات على الجانبين . . . .وكل شىء ما عدا هذا « هس هس » . . . حتى الطيور على الشجر . كانت تراعى وقار الشارع . وتتغاضى عن الأشباح المزدوجة . التى تمرق ظلالها هنا وهناك . فى صمت أشبه بالتواطؤ . . . .

وفى موضع من ذلك الطريق . عند منعطف فيه لم يكن لنا بد من اجتيازه فى الجيئة والذهاب . . . كانت تطالعنا فيلا رمادية اللون ، ذات سقوف مائلة على طراز البيوت الريفية الإنجليزية ، وعلى بابها كشك من الخشب مما يقام للحراس الخصوصيين ، فى جداره كوة كبيرة ، يطالعنا منها وجه عجيب الشكل . . . .

بعض الناس يربون لحاهم . . وبعض الناس يربون شواربهم . . وبعض الناس يربون الاثنين معا . . ولكن هذا الرجل كان يتميز بأنه يربى حاجبيه ! فهما شيئان بارزان كثيفان أشعثان ، من تحتهما عينان كفوهتى بندقية « ميزر » ، فى يد عات من قطاع الطريق . . . ويربى أنفه المكور كالكوز ، فى طرفه جميزة كبيرة ! . . ومن تحتها أضخم شارب معقوف منفوش . كأنه قرنا كبش جبلى ، موطنه الأصلى لا أدرى أين . . . !

لم يكن يقول شيئاً ، ولكن عينيه ، من تحت « تندة » حاجبيه المقرونين

الأشعثين ، كانتا تتبعانا خطوة خطوة . . . والشارب ثابت لا يتحرك حتى لو وقف عليه الصقر . . . العينان فقط هما اللتان تتحركان . . والجميزة . في طرف كوز الأنف ، تتحرك بحمرتها ، مبرزة المفارقة الشديدة مع سواد الحاجبين والشارب الذى يكاد طرفاه أن يتصلا بالحاجبين . ليصنعا دائرتين سوداوين شعثاوين ، حول هاتين المقلتين المتحركتين فى رهبة ترتجف ذا الأوصال ! ولا سيما أوصال من طاردهما الخوف من الرقباء إلى أطراف الضاحية البعيدة .

ويتحول همسنا الدافئ إلى صمت متجمد ، حتى لتكاد قطرات أخريات الألفاظ التى تفوهنا بها ترتطم مرتدة إلى شفاهنا بملمس ثلجى . . . فتسرى القشعريرة فينا . . وتبتعد الأكف المتشابكة من تلقاء نفسها . . . وتبتعد أيضاً مواطئ أقدامنا . . . ونشعر بوقع نظراته كاللعنات كالوخزات . كبصقات الاحتقار على أقفيتنا ، لمسافة طويلة قبل أن نزدرد ريقنا إلى حلوقنا الجافة . . ونستأنف ما كنا فيه من حديث يعيد الدفء الهارب إلى أبداننا الشابة شيئاً فشيئاً . . .

كم مرة خضنا هذه التجربة ؟

لا أدرى ! ربما أكثر من مائة مرة . . ولكنى أذكر بالضبط المرات السبع التى اجتزنا فيها ذلك الموضع ، من غير أن تطالعنا عيناه وحاجباه ، وشاربه المعقوف ، من كوة ذلك الكشك . . لعلها كانت أمسيات راحته الأسبوعية . . أو لعله كان داخل الفيلا ليأكل ، أو يشرب أو لا أدرى ماذا . . ! المهم أنى أذكر تلك المرات جيداً

لأننا كنا نتنفس الصعداء . . وتتقارب خطانا تلقائيًّا . . كأنما تعوض ما فاتها فى مرات التباعد الكثيرة . . . أو كأنها تخرج للكشك الخالى لسانها فى فرحة عربيدة . . .

كل هذه المرات أذكرها . ولكنى أذكر أكثر منها تلك المرة الوحيدة الفريدة . . التى كان فيها الشارب المعقوف هناك وليس هناك . . .

لم نشعر فى ذلك المساء أننا نقترب من « حافة الخطر » فى تلك الحرب الباردة . . لأننا كنا مشغولين بالمشادة الساخنة . المشادة الأولى والكبرى فى علاقتنا الطويلة الحميمة . كان ممدوح يزمجر بألفاظ خشنة ، يطلقها من فمه بلا حساب . . . وكنت أفكر كيف يتسع هذا الفم الصغير لكل تلك « القلاقيل » الهائلة . .

لم يكن عتابا بالضبط . . كان غضباً يقترب بشدة من القطيعة . . كان يظن فى الآونة الأخيرة أنى أراوغ فى لقائه ، كلما ضرب لى موعداً ، كى أستحثه على الدخول فى « المصيدة » . . . .

واعتبر ذلك إهانة لإخلاصه ، وتشككا فى نياته ، ومحاولة نفعية ، لا تصدر إلا عن « رسم » و « تكتيك » و « تفكير بارد » . . يستعجل المصلحة والضمانات ، ولا يقنع بالحب إلى أن تسمح له ظروفه بالتقدم فى إطار مناسب . . . .

ولم يكن شىء من ذلك صحيحاً . . ولكنها الظروف فعلا ؛

جعلت تلبية تلك المواعيد مجازفة مكشوفة. وشاءت الصدفة أن تتكرر المعوقات . . .

ورحت أقسم له ، ولكنه لم يصدق . . . بل إن أيماناتى المتعاقبة كانت تزيد سعير غضبه اضطراما . . . وأخيراً وجدنا أنفسنا — من غير أن نشعر — أمام الفيلا الرمادية ، حينما أخرج خطاياتى إليه وصورى ، ورماها فى وجهى . وقد وصل إلى قمة الغضب . .

وفجأة طالعنا صوت مازح ماجن أجش فيه تواطؤ معربد :

— الله ! الله ! وهل عصافير الجنة أيضاً تعرف الخصام ؟ وهل هذا كلام ؟ الأنس كان أنت ! والانسجام أنت ! والشك يحيى الغرام !

ونظرنا مذهولين ، فإذا الشارب المعقوف ، يهتز لأول مرة ويتكلم ! ومن فوقه فوهتا البندقية « الميزر » تومضان بالابتسام ! والحاجب الأشعث يهتز هزة خفيفة . . . تناسب المقام !

وتحولت ثورة ممدوح إلى عاصفة ضحك مجلجلة . . .

وصاح الشارب المعقوف ، بصوته الأجش الزائط :

— صافى يا لبن !

ونظر ممدوح إلى ، ونظرت إليه ، وامتزجت ضحكتى بدموعى ولم نعد نرى الشارب المعقوف . . .

ثورة العناد ارتدت إلى عكسها عند ممدوح — شأن كل الانفعاليين من أولئك الأطفال الكبار . . .

فى ليلتها بالذات أصر أن نذهب إلى أبى

ومن ليلتها لم نعد بحاجة إلى النزهات المختلسة . .

وكلما تذكرناه . يقول لى ممدوح :

— من كان يظن . حين يرى ذلك الشارب الرهيب . أن تحته كل ذلك الكنز من المرح الصافى . . والرقة . . والحنان . .

وصافحت أذنى ضحكة « زهراء » مستمتعة ببرنامج الأطفال . . وتحيرت . كيف أقول لها إن تحت الشوارب المخيفة أحياناً قلوباً أرق من النسيم . . .

طالت حيرتى ، ثم قلت لنفسى :

الأيام وحدها . . مثلما فعلت معى ، وبطريقتها الخاصة . ستعلمها .

ونسيت كلّ شيء

obeikandl.com

أحستْ بحركة خلفها . وكان الصابون لم يزل عالقا بيديها . . . وقطرات من الدماء تلطخ المئزر الأبيض الناصع .. فقد خرجت لتوها من حجرة العمليات . إثر جراحة استنزفت جهدها . . جراحة من أسهل الجراحات التى تقوم بها عدة مرات يومياً . . أما فى هذه المرة فقد تناول الطفل إفطاراً قبل حضوره إلى المستشفى ! ولم تحط علما . وإذا باختناق يصيبه يكاد يقضى عليه ! ولكن الله سلم ، بعد ساعة من صراع مع الموت وجهاً لوجه . . .

واستدارت تتناول المنشفة من الممرضة . وإذا بعينيها تصطدمان بعينين . لم تكد تراهما حتى أفلتت منها صرخة صغيرة مذعورة :

ــ أنت ؟ !

وتسمرت أقداماهما للمفاجأة ، ولم تكن تخطر لهما ببال . . . ولم يطل وقوفهما أكثر من ثوان ، ثم توجه هو فوراً لإسعاف مريض . . . أما هى ، فخلعت المئزر الملوث ، وفى خطى بطيئة اتجهت إلى غرفة الأطباء للاستراحة ، بعد المجهود الشاق الذى بذلته . . .

وعلى مهل ، راحت تحتسى فنجان الشاى بالنعناع ، الذى قدمه لها عم نور ، العجوز الأسود المهزار ، عامل البوفيه ، الذى يعرف جيداً متى وكيف يقدمه إليها ، مع انحناءة يرفع بعدها وجهه إلى السماء قائلا ، ويداه تبتهلان :

— إنى أقدمه لك فى « بيت العدل » : يا سيادة الدكتورة . . . ياست إيناس هانم . . .

ودائماً ينطق « الدكتورة » بفتح الدال . ويعقبها باسمها مفخما بهانم . . . وكانت تضحك . وتتحفه بخمسة قروش من الفضة . فهذه العملة غالباً ما تحظى فيها فتحسبها قرشاً . لذا ما إن تقع فى يدها حتى تحفظها لعم نور . . . .

أما فى هذه المرة . فقد أحست بغم ينفجر فى داخلها . لمجرد سماعها بيت العدل . . . واتشحت المرئيات بالضباب . . وغام كل شىء والتفت الأصوات من حولها فى طوايا الصمت . لتفسح لدقات حزينة . راحت تطرق باب قلبها الخاجع وسط الركام . . .

عشرون عاماً . . !

وارتجفت . . كيف ؟ عشرون عاماً لم تقع عيناها عليه ! . . كانت فى صباها الباكر زهرة يانعة وتفتحت عليه عيناها . . . زميلان فى الكلية كانا . . متوقدين بشعله الحياة . . . ينظمان معاً سيمفونية رائعة . . . طريق مستقبلهما الذى على وشك البداية . . فالتخرج بعد شهور . . وسنة الامتياز للتحضير . . يعقبها زواج لا فصام بعده . . .

هكذا راحا يعدان العدة . . ويستقبلان الأمل معاً . . ويحفران اسمها واسمه « إيناس وأنسى » على كل ما يمكن أن يرافقهما إلى حياتهما الجديدة .

وفجأة سقط والدها تاركا لها خمس أخوات ، كبراهن « هدى »

فى الثانوية العامة . والصغرى « نجوى » طفلة تحبو . . وأما ثكلى . . وقد يترك شيئاً . . سوى معاش بسيط لا يكاد يكفى الكفاف . والعائلة من ستة أفراد . وهى السابعة . . ولم يترك أخا يعينها على تربية الصغار . والفارق بينها وبين أختها التى تصغرها سبع سنوات . . . وانهارت أحلامها : الواحد تلو الآخر . رغم أن أنسى كان دائماً بجانبها يشجعها . . . ولكنها تعلم — تعلم جيداً — أن أنسى وحيد والديه المدلل . . . وأن به من الأنانية ما لا يمكن أن يسمح ذا برعاية أخواتها . . فهو يريدها له وحده . كان هذا شرطه الأول . أن يسكنا بعيداً . . بعيداً جداً عن العائلتين . . . وأن ينفردا بحياتهما . ولا تدخل من أحد إلا للضرورة . . . أما ما تراه منه الآن من حدب وتشجيع . . ففقاعات لا تلبث أن تذوب . فى الوقت المرسوم . . .

هل هى مستعدة أن تترك الأفواه الستة لرحمة القدر . وتذهب معه ؟

ولكن . . . هل هى مستعدة أيضاً أن تقتل قلبها ، وتدمر حياتها ، لرعاية هذا الجيش ؟ وإلى متى ؟

الصدمة قاسية . . والأم الثكلى . . والأطفال الجزعون . . وهى الدعامة . والموئل الوحيد والملاذ لطفلات جنت عليهن الحياة . . .

وفى أول مرة استطاعت أن تتكلم مع أنسى فى أمر مستقبلهما ، أحلته من وعده . وطلبت إليه أن يختار حياة تلائمه . . . فهى لم تعد تصلح له . . . وأمامها واجب نحو أخوات هن أحوج إليها منه . . ولا بد أن تكون على مستوى الموقف ، حتى يستطعن الاعتماد على أنفسهن .

ولذلك فالشوط طويل . ولا ترى له نهاية فى الوقت الحاضر . . .

وبعينين فيهما كل أنانية العاشق قال :

— ولماذا لا تعمل هدى بالتوجيهية لتساعدك ؟

ولم تجب . نظرت إليه نظرة تحمل كل معانى الهوم والحزن . . وأخيراً أجابته :

— يا أنسى . لقد قررت . ولن أرجع عن قرارى الذى اتخذته .

— ما الذى قررته ؟

— لن أتزوج ! . .

وكأن صاعقة نزلت على يا فوخه وصاح :

— أتحطمين حياتنا لكلمة تفوهت بها ؟ أربع سنوات ليست بالشىء الكثير . . . وستتخرج هدى بعدها ونستطيع الزواج .

وهزت رأسها فى أسى عميق ، وهى تردد كأنما لنفسها :

— هدى طفلة . . . ولا أستطيع الاعتماد على تصرفاتها . . . وأمامى أربع أخريات . . .

— وهل ستوقفين حياتك عليهن ؟ أهذا كلام ؟

وطأطأت رأسها فى استسلام وأجابته :

— إنها ضريبة الحياة . لقد اقتطع والدى من قوتهن ليعلمنى . وعلىّ الآن أن أرد الجميل . . .

فصاح فى غضب :

. . لن أدعك تقتلى نفسك من أجلهن . . !

وفى هذه المرة رفعت عينيها . فى عناد يعرفه فيها جيداً . وقالت . وهى تضغط على مخارج الكلمات فى حزم :

- اذهب يا أنسى . . . لن أتزوج !

عشرون عاماً . . .

وتنهدت . وهى تراقب سحابات دخان السيجارة فى يدها . تتلاوى أمامها . ثم تتبخر فى فضاء الحجرة الفسيحة :

هل كانت حياتها كسحابة دخان ؟

عشرون عاماً مضت . لم تفتر لحظة ولا وهنت عزيمتها . . فى شغل متواصل كانت تقضى يومها . لتتيح للصغيرات الأربع حياة كريمة . سواء من مطالب المعيشة أو مطالب التعليم . . وللأم الثكلى رضى وهدوء بال . . كانت تضحى وهى راضية قريرة . وفى المرات القليلة التى أعوزتها فيها الشجاعة . . كانت تستصرخ عزيمتها . . .

لا تنسى يوم تخرجت هدى فى كلية التجارة . وأتتها على استحياء تستأذنها فى الزواج من زميل لها . . !

ونظرت إليها فى عتب . لم تستطع العاشقة الصغيرة أن تتبينه . . . فهى فى شغل ، برغبتها الملحة ، عن الإحساس بما يعتمل فى قلب الأخت الكبيرة . التى ضحت بحبها من أجلها . . ! ضحت بالزواج كى تتخرج هى ، وتحمل معها المسئولية . . . ولكن الشابة صغيرة . .

وعودها ضرى . . وإن كانت هى قد ضحت بحياتها ، فليس معنى ذلك أن تضحى الباقيات مثلها . . ولتترك الصغيرة تنعم بحبها ، ويكفيها أن تفرح لفرحتها ولغرس يدها . . .

— هذه بطولة لا يمكن أن تتوفر فى الرجال . . . ولو كان لهن أخ ، لما حرم نفسه من طيبات الحياة ليسعدهن ، كما تفعل هى .. إلهى يكرمها بابن الحلال . . .

هكذا كانت تسمع بأذنيها الكلمات تتناثر من حولها ، من كل الأقارب . . . وتبتسم فى صمت . كان هذا الإطراء يؤلمها . . كوخز الإبر تحسه فى جسمها . أبدا لم ترتح لهذه التعليقات ولكن أين المفر .. وما السبيل إلى دحض هذه الخرافات التى يتناقلونها . . . ؟

وتهز كتفيها ، وتدير لهم ظهرها . .

وتزوجت هدى . ومن بعدها تخرجت الصغيرات الثلاث . واحدة تلو الأخرى وتزوجن ! وكانت الأم والحق يقال — تتوسل إليها ألا ترفض من يتقدم لها . . وكانوا كثيرين . . وفى مراكز طيبة . . ولكن قلبها كان قد أغلق تماما دون الزواج . . . كانت قريرة بحياتها ، وبما يتيحه لها عملها من رضى نفسى . . .

ومدت يدها تطفئ السيجارة ، حينما أحست بها تلسع أصابعها . . وفى هذه اللحظة دخل أنسى . . . وجلس على المقعد قبالتها ، وتأملته عشرون عاما . . ! لكم تغير . . !

قادم من بعيد ، تنطبع صورته فى صفحة نهر ، وقد وقف يتأمل

النهر على الشط . . .

وارتجفت زاوية فمها ارتجافة لا تكاد ترى . وهى تسمع صوته :

ـ ها قد دارت الأيام . . . ندبت إلى هنا بسبب مرض زميلنا فتحى .

ـ أخصائى باطنة ؟

وهز رأسه . وفى وجهه . الذى ازادت بدانته كثيراً نظرة ـ من تحت أجفانه التى أضحت غليظة ـ يختلط فيها أكثر من معنى وأكثر من سؤال . . .

ولكن . أيكف النهر عن الجريان ؟

علموها فى الجغرافيا أن النهر لا يرتدّ . . . . أتراه يملك أن يقف ؟ الناس تغدو وتروح . وتقف أحيانا وتنظر إلى الوراء . . أما النهر . . . وقبل أن تجيبه عن سؤال غامض عن الأحوال . دخلت الممرضة على عجل . تخبرها أن الطفل الذى أجريت له الجراحة أفاق وحالته غير مرضية . .

ونسيت كل شىء . . . واندفعت تجرى . . . .

ثمان عيون

obeikandl.com

أقبل الليل . وفى صمته الآسر استسلم إسماعيل للكرى . . دقائق ؟ لا يدرى ! ربما ثوان . ثوان معدودات .! فتح عينيه على أثرها يلهث كأنما أحد يطارده ! يقتفى أثره ! مع أنه إنسان مسالم . عاش حياته بعيدا عن القرية . فى المدينة الكبرى . وتلقى تعليمه فى مدارسها . ثم فى جامعتها . . . وها هو ذا الآن ينتظر خطاب التعيين . .

وتقلب فى فراشه . قطرات من العرق تبلل جبينه . . برودة تسرى فى أطرافه . . والجو خانق . ونشطت أفكاره . . عقله فى صحو تام . .! الحجرة حالكة الظلام . . لا يصيص يكسر حدة هذا الغول المرعب ، الذى يبسط ظله على كل شىء حوله . . .

وتجسم كل شىء أمامه . . والليل كافر . . لا يرحم . . وتحول فراغ الحجرة إلى عيون . عيون محملقة تتطلع إليه فى فضول . . فى تساؤل . . بل وفى اتهام أيضاً . .!

ماذا ينتظر ؟! عشرون عاماً مضت . . عشرون عاماً فى انتظار ممض . : ماذا ينتظر ، وكان الأجدر به أن ينهى المسألة من أول ما اشتد عوده ، وأصبح قادرا على حمل السلاح ؟!

ومن خلفه أحس العيون كالخناجر تسلط على ظهره المستكين . . وكأنما العيون تنطق :

— شاب « خرع » . . تربية البندر والمدارس : : حسنين لم ينجب

ولدا .. أنجب بنتين : هنية وإسماعيل ..! يا ضيعة شبابك ياحسنين !

هكذا كانت تنطق العيون الساخرة الحاقدة ، وهى تتطلع إليه فى صمت ... بل هكذا كانت نظرة الرجل الذى رآه يجالس أمه ، حينما عاد من الخارج .. ودار بينهما أغرب حوار . بعد أن قدمته إليه أمه باسم « محروس الكردى » . ونظرات نارية تنطلق من عينيه :

— القرية تنتظرك يا إسماعيل ..

كان يتكلم بصوت هادئ ، إلا أن الشحنة التى وراء هذه الألفاظ لم تخف على إسماعيل ..

وتسمرت قدماه ، وهو ينقل البصر من الرجل إلى أمه ، ومنها إليه ... وهى جالسة كالفأر الضعيف أمام قط متوحش .. عاقدة أصابعها فى حجرها ، فى استسلام عاجز .. مسمرة العينين على نقطة فى نقوش السجادة المنمنمة الحواشى ..؟

محروس الكردى . ابن عم والده . لم يره فى حياته إلا مرة واحدة فقط . كانت قبل أن يبرح القرية مع أمه إلى المدينة ، بعد مقتل والده فى ثأر .. حمله على كتفه وصوب إليه نظرة ظلت تطارده سنوات .. وكلمات كالشواظ تخرج من بين شفتيه :

— ستعود يوماً إلى القرية يا إسماعيل لتثأر لأبيك ..!

أبداً لم تفصح أمه طوال هذه السنوات عن سبب مقتل أبيه .. كلما فتح الموضوع أسرعت بالمراوغة .. وقد عادت بعد مقتل زوجها ، مع ابنها إسماعيل وابنتها هنية ، لتعيش وسط أهلها فى البندر .

ولكن الثأر ثأر .. وأهل الصعيد لا يغتفرون الجبن .. وأن يترك الابن دم أبيه يهدر هكذا ، مسألة لها حساب آخر .. والرجل كان يتكلم بحرقة .. وتناول معهم طعام الغداء .. وبعد الظهر انضم إليه رجال آخرون — ثلاثة . ثلاثة أشداء .. وكان الحديث غاية فى الغرابة على ابن البندر ، الذى لم تطأ قدمه أرض الصعيد منذ طفولته .. فهم يتفقون معه على يوم بالضبط ، يذهب فيه إلى القرية . وسيعدون له كل شىء : السلاح والعباءة . وكل ما يلزمه . وقبل كل شىء ، سيقدمون إليه الضحية ! الشخص الذى وقع عليه الاختيار ! وسيكون ذلك فى حفل عشاء يقيمونه ! وسيرتبون هم المسألة . بحيث يحجز هذا الشخص حتى ينفض السامر .. وعند عودته ، يكون هو منتظراً وسط الذرة ، فيطخه بالعيار ، ويعود فورا ، ولن يكتشف أمره الجن الأحمر ....

— معنى هذا أن الشخص الذى ستقيمون له الوليمة ، والذى وقع عليه الاختيار ، ليس بينه وبينكم أى حقد ! بل هو ضحية مثلى ، لثأر قديم لا يدرى عنه شيئاً ؟!

وتحولت إليه العيون الثمان . عيون كأنها قدت من نار . : عيون حمس لنظراتها وقع السياط على وجهه . . وصاح محروس :

— أنفهم من كلامك أنك تحجم عن الثأر لأبيك؟

فأجاب بنبرة عرجاء :

— ألم تأخذ العدالة مجراها ؟

وفجأة . اهتزت الأرض لقيام الرجال الأربعة مرة واحدة . : :: .

اهتزت الأرض تحت أقدامهم الصلدة. والتفع كل منهم بحرامه وغطى به نصف وجهه . ! وخرجوا بعضهم فى إثر بعض ؛ دون أن يلقوا نظرة أو كلمة على الأم وابنها . . بل اخترقوهما فى صمت مشحون بالازدراء . وأقدامهم تدب فى خطوات صامدة لحوح ، فوق أرض الردهة ؛ ثم على السلم الحجرى . . !

هذا الليل الكافر . . . والنوم الذى هرب . . . والعيون الثمان التى تكاد تحرقه بنظراتها النارية . . .

وتقلب . . . وحاول أن يخزى الشيطان وينام . . وحاول ؛ ولكنه أخيرا قفز من سريره وارتدى ثيابه على عجل. وبخطوات متلصصة كيلا يزعج أمه ، فتح الباب وخرج إلى الشارع . . .

وفى القرية كانوا ينتظرونه . وقدموه إلى الضحية . فإذا شاب لطيف دمث . وأحس بقشعريرة ، ما لبثت أن ذابت فى جو الحفل ، الذى استمر حتى موهن من الليل ، أمده بشجاعة لم يعهدها فى نفسه ..! وبإشارة من محروس اختفى عن الأعين .. دون أن يلحظ أحد اختفاءه ... ووسط الذرة كمن . . منتظراً خصمه .. وقد التفع بشال فوق العمامة .. و « المقروطة» فى يده . . .

وعند أول خيوط الفجر ، سمع دبيب أقدام . . وتحفز .. وأتأر عينيه .. واستجمع شجاعته .. وبرز خصمه .. فأطلق العيار .. فأرداه....

صرخة واحدة أطلقها القتيل . . جمد لها الدم فى عروق إسماعيل واستجمع كل قوته . . وأطلق ساقيه للريح .. كأنما يطارده الشيطان ....

وارتطمت ساقه بشيء . . صدمة موجعة .. ولم يستطع كتمان صرخة ألم ...

وانثنى على ساقه يفحصها . وعيناه المذهولتان تمسحان الظلام من حوله . . . وهو يرتجف رعباً ....

عمود السرير الحديدى . . ساقه ارتطمت به .....

وجلس يفرك عينيه . . ويعيد التحديق فيما حوله .. وهو يتصبب عرقاً ...

ومن أعماقه خرجت زفرة ارتياح .. وبصق من فمه المرارة التى تجمعت .. بصقها بحنق . . كأنه يريد أن يطفئ الشواظ المنطلق من ثمان عيون ....

وانفرج الباب عن أمه ، مشعثة الشعر . . ومدت ذراعيها فى قلق ولهفة .. بعد أن ضغطت على زر النور ..

— إسماعيل ... مالك ؟ سمعتك تصرخ ...

وثنى رجليه ، مفسحاً لها مكاناً على طرف الفراش .

— لا شيء يا أمى . . . رأيت حلماً فظيعاً . فظيعاً جداً ...

ونظرت إليه متسائلة ، وقد زاد قطوبها :

— ... كانت عيناه بريئتين .. وديعتين ، كأنهما يمامتان ... وظلت العيون الثمان تلاحقنى وتحرقنى فى صدرى بنظراتها . . . « كن رجلا يا إسماعيل .. كن رجلا ...» وضغطت على الزناد .... ولا أدرى يا أمى أينا كان أشد صراخاً . أنا ... أو هو ...

وأغضى ببصره .... ومدت يدها المعروقة تربت على ركبته فى صمت ..

ـ لماذا خلقنى الله رجلا يا أمى ..!

وتحولت نظرتها من الحنان إلى العتاب ... يمازجه الألم ..

ـ خسارة تربيتى فيك يا إسماعيل ... خسارة عمرى الذى أضعته لتكون سيد الرجال ...

ورمقها فى ارتجاف وحيرة :

ـ سيد الرجال يا أمى ؟ .. انظرى كيف يتصبب العرق منى لحلم رأيته ... حاولت فيه أن أفعل ما يفعله الرجال ..؟!

وزادت نظرتها عتاباً : كأنها أصيبت بجرح غائر ..

ـ التزمت الصمت يا إسماعيل تاركة لك حرية الاختيار والتصرف وحدك .. وأنا طامعة أنك ستدرك الحقيقة من تلقاء نفسك .. وأن تربيتى فيك لم تذهب سدى ... ولكن يبدو أنك لم تزل ناقص التمييز ...

واشتدت قبضتها على ركبته ، كأنها تريد أن تغرس أصابعها مع كلماتها فى لحمه :

ـ الرجل شىء والبهيم شىء آخر :.. والفرق بينهما هو الفرق بين الضمير ... والتوحش ... الفرق بينهما يشهد عليه عرق الفزع من وحشية البهائم ، التى أرادوا أن يفرضوها عليك باسم الرجولة .... ولكنى ـ أنا المرأة ـ كنت أدرى بالرجولة منهم ... وجعلتك تعطى شريعة الغابة ظهرك ...

ونظر إليها نظرة طويلة أسيانة ... وشيئاً فشيئاً شاعت البسمة المشرقة فى أساريره ....

obeikandl.com

الســــــرداب

obeikandl.com

— تأخرت يا ماما ...

وتقلبت فى الفراش . وفتحت عينيها . وعلى ابتسامته العذبة قفزت من السرير إليه ... إلى فراشه الذى لا يبعد عن سريرها سوى خطوات ...

وطبعت على خديه قبلة الصباح . وعيناها على المنبه .

الثامنة إلا الربع !

يا خبر ! كيف غلبها النوم إلى الآن ؟

واستدارت إلى ابنها متسائلة :

— ألم يرن جرس المنبه يا رامز ؟

— رن يا ماما . وانتظرت أن تستيقظى ككل يوم ولكنك لم تفعلى ، فناديتك ..

كانت تحادثه ، وهى ترفعه بين ذراعيها ، لتأخذه إلى الحمام ككل صباح . وصرخت تسأل الشغالة :

— لماذا لم توقظينى حينما تأخرت ؟! هل أفطرت الطفلين ؟ .. وهل نزلا مع والدهما إلى المدرسة ؟ .. كيف تركتمونى هكذا ؟ ! ....

وأجابتها الشغالة :

— سيدى قال اتركيها حتى تستيقظ .

— عجباً ! ألا يعلم أن جرس المدرسة يدق فى الثامنة ! ؟ وعلى أن حمم رامز وأفطره قبل نزولى ؟ ! . .

— ربما خطر له أنك اليوم فى إجازة ؟

— ما هذا التخريف ! .. أسرعى بإعداد الإفطار لرامز ..

— كل شىء .. على المائدة ...

ورفع رامز عينيه إلى أمه متسائلا ؛ وهى تضع الطعام فى فمه :

— ماذا قال لك الطبيب أمس يا ماما ؟ هل سأعود للذهاب إلى المدرسة ؟

وغضت بصرها . حتى لا يلتقى ببصره . وقالت : وقد أحست بجرعة الشاى تقف فى حلقها :

— قريباً يا حبيبى . .

وسكت . وكانت عادته أن يسكت كلما لمح على وجه أمه حزناً : فذكاؤه وحساسيته يمنعانه من إيلامها .

وأجلسته فى البهو . وطلبت من الشغالة ألا تغفل عنه لحظة . ووضعت بين يديه كتابه المفضل . وهرولت ترتدى ملابسها فى دقائق . ثم طبعت على وجهه ويديه قبلات عديدة ؛ وخرجت تجرى .

تسع سنوات . عمر « رامز » . ولم تترك طبيباً إلا وعرضته عليه .

فى السادسة من عمره . كان يمشى ويتكلم ، ولكن بصعوبة . صعوبة لم تمنعها من إرساله إلى المدرسة . ولكن الأطفال شياطين . . لا قلب لهم . اتخذوا منه ملهاة . وراحوا يداعبونه مداعبات ثقيلة : يضحكون عليه حين يتكلم ! ويقذفونه بينهم حينما يتعثر فى مشيته ! . ولم ينفع معهم نصح : : ولا إرشاد . ولا تهديد من الناظرة ، حتى وصل الأمر

بها إلى عقابهم دون جدوى . فاضطرت أن تنبهها إلى خطورة وجوده : وسط أطفال لا عقل لهم ولا قلب ! . واضطرت هى بدورها أن تخرجه من المدرسة ، بعد شهور حافلة ، أصابه فيها ما أصابه ، دون أن يشكو لأمه شيئاً !

قال لها الطبيب « أصابه ضمور من كثرة ما تعاطيت من عقاقير أثناء الحمل به لإنزاله ! » وكان فى الثانية من عمره ينمو رأسه نمواً طبيعياً ، أما جسمه فهزيل ، ويداه ورجلاه ضامرة ...

وقيل لها إن طبيباً أجنبياً ، مختصاً فى العظام ، سوف يأتى خلال أيام . وأسرعت تحجز له مكاناً . وكشف عليه الطبيب . وأعطاها علاجاً : استطاع أن ينمى عضلات الصغير . ولم تمض شهور ، حتى بدأ يقف على قدميه ، ويخطو خطوات . وواتاها الأمل فى أن يصبح طفلا عادياً ، ويلعب مع أخويه ...

ولكنه أبداً لم يصبح طفلا عادياً ! حتى إنه فى السادسة من عمره لم يكن ليستطيع أن يتقى هذر الأطفال ، وكان يقع ويقوم فى اليوم عشرات المرات ...

واضطرت أن تلحقه بمدرسة خاصة بأمثاله .. ذوى العاهات ... ولكن حتى هذه أيضاً لم تستطع أن تتركه فيها طويلا ! . لماذا ؟

لأن حالته كانت إلى تدهور :: لا إلى تحسن :.! ولأن الطبيب قال لها :

ـ لا فائدة ... يجب أن تكوني شجاعة !

وبطبعها كانت شجاعة ...

« ابتسام » . هكذا أسمتها والدتها . وكأنما كانت تقرأ فى لوح القدر ما سوف تكون عليه ابنتها . فهى مبتسمة أبداً . يزيد فى جمال ابتسامتها تلك « النونتان» اللتان تتوسطان خديها ؛ وذلك اللمعان الأخاذ يشع من سواد عينيها الفاحم ...

[إذا أتيها والدها ، تتساقط دموعها فوق ابتسامتها . ! إذا أدركها المرض ، وعادتها صديقاتها ، كانت ابتسامتها أسبق إليهن من توجعها .! إذا سقطت على الأرض ـ وهى طفلة ـ قامت تبكى وتضحك فى آن واحد .. ! ولم تكن ابتسامة فقط تلك التى يشرق بها وجهها دائماً ، بل هى ضحكتها اللطيفة التى لم تكن تفارقها أينما حلت . يزيدها لطفاً ورقة خفة ظلها ، ودماثة خلقها ، حتى إن صديقاتها أطلقن عليها « الضاحكة» ...

أينما حلت ، لقب « الضاحكة» يسبقها ... وتظل تحكى وتضحك وتروى النكات ، وتتفكه مع هذه وتلك ... محبوبة هى . لا يخلو مكان من وجودها ...

تعبد الأطفال أينما وجدوا . فى الطريق ـ إذا رأت طفلا ـ ترفعه بين يديها وتقبله ! فى الترام ـ وهى ذاهبة إلى معهدها ـ لا تدع طفلا على حجر أمه ، بل تظل وراءه حتى تأخذه على حجرها ، تهدهده وتداعبه..! أما أطفال الأصدقاء والأقارب ، فلها منهم أحباء فى كل بيت ، يهرعون

إلى حضنها ، ويتعلقون برقبتها . وتظل تلعب وتضحك معهم ... لا تتعب .. ولا تمل ...

كانت أمًّا لأختيها أكثر من أمهما . فقد ولدتا على يديها : وربتهما فى حضنها .. بين الواحدة والأخرى أقل من عام . مجنونة هى بالطفل حينما يولد .. تحب رائحته . وتحب كل ما يتعلق به ...

أقسمت أن تنجب عشرة أطفال . ولكنها بعد ولادة الطفل الثانى تراجعت عن قسمها .. فولادتهما كانت من الصعوبة بحيث أفزعها مجرد ذكر الحمل ...

وجاء الحمل على غير إرادتها . ومن الشهر الأول راحت تجرب كل ما تشير به عليها الصديقات ، من أعمال هى فى الحقيقة تشكل خطورة فظيعة عليها وعلى الجنين ... وحينما بلغت شهرها الرابع . رفض طبيبها إجراء أى جراحة لها ، لضعف صحتها ، وعدم تحملها مزيداً من الإرهاق.

وولد رامز ، ولادة طبيعية : طفلا طبيعياً جميلا . وانفجر كل حبها الكامن للأطفال ، فى صورة خوف وإعزاز وحدب على الصغير ، يزيد فى فعاليته إحساسها بالذنب مما فعلته معه ، وهو فى أحشائها ...

واجتاز شهره الأول فى سلام . ولكن تغيرات بدأت تظهر عليه بدخوله فى شهره الثانى . فجسمه بطىء النمو جداً .. لم يكد يتقدم خطوة عن يوم ولادته .! أما رأسه فيكبر بشكل غير طبيعى ...

— هذه نتيجة طبيعية لما كنت تتعاطينه أثناء الحمل . .

هكذا قال لها الأطباء . الأطباء الذين عرضته عليهم مرة بعد الأخرى .

وهكذا راحت تتعلق بالصغير . تعلق المجنون . كلما أبدى طبيب إشارة يأس فى نموه نمواً طبيعياً ...

وعاشت فى رعب من أن ينمو الطفل كسيحاً ، أو مشوهاً ..

لم تكن تدع خدمته لأحد سواها . قبيدها كل أمره . لم تتركه للدادة كأخويه . بل مهما كانت درجة مشغوليتها ، فله الأولوية فى كل شىء ...

ومع كل يوم كانت أعراض جديدة تظهر عليه — ولم تيأس ، فمرة تجد الأمل عند بعض الأطباء .. ومرات تجد اليأس . . .

ومع كل هذه الميئسات المبكيات ، هل فقدت ابتسامتها ؟

كلا ! فقلبها يدمى . ودموعها تتساقط . حتى لتحسها تحرق أحشاءها قبل خديها . ومع ذلك فابتسامتها هى هى ! مع ضحك لا ينقطع ..!

أبداً لم تشك لأحد ! أبداً لم تعرف زميلاتها مأساتها .. بل هى ابتسام . الضاحكة ! المرحة ! فى نظرهم ، ونظر كل من يعرفها ..

كان ذكياً لدرجة مذهلة ! تشع من عينيه الجميلتين أمارات توقد فذا . ! وكانت تلقنه مواد الدراسة سنة بسنة .. حتى إنه سبق من فى سنه من الأطفال بمراحل . .!

وحضر الطبيب الأجنبى الذى رآه فى سنواته الأولى ، فأسرعت بعرضه عليه . وقال كلمته الفاصلة .

— ضمور ....

ثم رفع عينيه إليها . . عينين جادتين . ووضع يدا على كتفها ، ورفع أصبع اليد الأخرى إلى أعلى وقال :

— إذا كان هناك أى أمل . فمن عنده :::

ورفعته على كتفها ، وخرجت من عند الطبيب ، والطريق أمامها سرداب مظلم لا ترى له نهاية ....

وفى الصباح ، لم تستطع القيام من فراشها ، بعد ليلة قضتها تحت ضغط كوابيس مفزعة . لم تصح إلا على صوته يناديها . .

وخرجت تجرى إلى مدرستها . ولم تصل إلا بعد الجرس بربع ساعة .

وفى الفسحة ، التفت حولها المدرسات يسألنها عن سبب تأخرها ، وهى الحريصة على المواعيد .. وكان ردها نكات وضحكات ومرحاً لا حد له !

وصاحت زميلتها سلوى :

— يا بختك يا ابتسام ! ما من مرة أراك إلا ضاحكة مستبشرة ، لا هموم لديك ، ولا شىء يقلقك ...

وبمجرد سماعها كلمات سلوى ، التفتت إليها وكأنما سكين قرت فى أحشائها ... ثم انفجرت فى بكاء مر ، هز جسمها كله ...:

والتفتت الزميلات حولها ، متأذيات متفجعات لحالها . . وجعلت سلوى تسب نفسها ...

ولم يدم هذا التدفق الانفعالى الطامى إلا دقيقة واحدة .. أو ربما أقل من دقيقة . وفجأة أخذت عضلات وجهها تتحول من الانقباض إلى الانفتاح ، وما لبثت إشراقة الابتسام أن زاحمت الدموع على وجنتيها ، حتى ظهرت « نونتاها » ، ورفعت أهدابها تنقل نظرتها الضاحكة بين

وجوههن وهى تقول :

ـ أرأيتن إلى البكاء كم هو سهل ؟

وتحولت لهفتهن عليها إلى ذهول وهى تستطرد :

ـ كلكن صدقتن . كلكن بلا استثناء ! كى تعرفن أنى لا أضحك دائماً عجزاً عن البكاء ... ولكن المسألة كما ترين مسألة « مزاج » ..

ووثبت واقفة وهى تضحك من وجومهن ، وما لبثن ان انفجرن ضاحكات .

ومن يومها ، كلما خطرت ببالهن ، يهززن رءوسهن ويقلن :

ـ ابتسام هذه آه منها ! .. لا تفرغ لها ألاعيب . . !

obeikandl.com

لحظة صحو

obeikandl.com

انحنى يضع قبلة على صفحة وجهها ، وهو يودعها لمهمة لن تستغرق سوى يومين . ورفعت إليه عينيها فى إعزاز . بل فى حب يصل إلى حد الوله . فالسنوات الخمس عشرة التى قضياها معاً . لم تستطع أن تخمد لهيب الحب ، الذى بدأ قبل زواجهما بأربع سنوات .. ولم تستطع أيضاً أن تجعله يهمل بيته ، ولو ليوم واحد . بل هو الزوج المحب الغيور ... أما الأولاد الثلاثة ، الذين أنجبتهم خلال هذه المدة ، فقد زادوا الرباط بينهما وثوقاً ...

وتأملته وهو يخطو نحو الباب . رشيق القامة . موفور الصحة . وتنهدت وهو يبعث إليها قبلة على أطراف أصابعه ، ويغيب فى منعطف الدرج ..

كطفلين يعيشان حبهما .. سعيدين بحياة لم يكدر صفوها شىء ذو بال .. يحسدهما الأهل قبل الصحاب .. فهى وإن لم تكن جميلة ذلك الجمال الصارخ ، إلا أنها على سمت ومهابة .. محترمة فى عملها ومعززة فى بيتها ...

وخطت خطوتين . وأغلقت الباب . وتفرست فيما حولها . كل ما فى بيتها يذكرها بحلاوة العشرة .. فما من شىء إلا وله ذكرى جميلة فى نفسها . فهذا المقعد كانا يجلسان عليه معاً ، فى بداية حياتهما الزوجية .. ويصر « عارف » زوجها على أن يحتسيا القهوة من فنجان واحد . قهوة العصر ....

وابتسمت . . يا لها من أيام .. إنه لا ينسى المناسبات ، فمع كل عيد زواج يفضل أن يقضياه معاً ؛ بمفردهما . لا يزعجهما ضيف ولا أولاد ، فيرسل الأولاد إلى بيت جدهم .. ويغلق البيت عليهما ؛ وكأنهما عروسان فى أول أيامهما ... بل فى يومهما الأول ...

وأحست بالعرفان ؛ وهى تقف على باب حجرة النوم فاخرة الأثاث .. قال لها يوم انتقياها معاً : « تذكرى أن هذه الحجرة سنقضى فيها نصف عمرينا . . يجب أن تكون ذا طابع خاص .. طابع ينفرد بذوقى وذوقك ... فكل قطعة من أثاثها ستكون بمثابة النبضة فى عروقنا .. فلا نراها إلا ونستشعر سريان الدم فى جسمنا .. فقد جمعتنا على حب بعد طول انتظار ... »

وبيدين تتنفسان الحنان ، راحت تسوى الفراش . وتضع كل شىء فى مكانه .. وأنشودة خفيفة تتغنى بمقاطعها بين شفتيها ...

يقولون إن الزواج نهاية الحب الجارف ، وبداية العشرة والاتزان .. أما أنا ، فأقول إن الزواج بداية الحب الجارف مع العشرة والاتزان ...

وفى غمرة سعادتها ، تذكرت أن حجرة المكتب يجب أن تنظفها وتغلقها قبل أن يأتى الأولاد . فالخادم اليوم فى إجازة . وهى فضلت ألا تذهب اليوم لتوعك ألم بها . لم تخبر «عارف» ، حتى لا يؤجل سفره .. فمهما كان عمله مهماً ، كانت هى دائماً أهم عنده منه ....

يا له من رجل .. بل يالله من حبيب ....

حجرة المكتب دائماً تنظف وتغلق فوراً . فالأولاد شياطين لا يتركون

شيئاً فى موضعه .. وأوراقه مهمة .. وكل قصاصة لها نفع عنده .. والخادم يعرف ذلك .. أما الأولاد .

كل شىء فى البيت كان ملك يمينها : نقوده . ملابسه .. أدواته — إلا درج المكتب . دائماً مفتاحه معه . فى جيب سترته . بمفرده . أبداً لا يضعه فى سلسلة مفاتيحه . وكم سألته : « لماذا هذا الدرج بالذات تحجب ما به عن عينى ؟ » وكان يعتذر أن به أشياء تخص عمله ؛ والأولاد شياطين . ولا يرضيك أن يعبث بأهم أوراقى ...

أمين هو فى كل شىء : فى بيته .. مع أولاده .. مع زوجته .. حتى أوراقه تعتبر شيئاً محرماً لا تمتد إليها يد غير يده .

وكانت تحترم إرادته . وتكبر فيه الإحساس المفرط بالمسئولية . فيوم أن كانت تتغيب عن عملها بلا سبب وجيه . كان يحثها على الذهاب ويبين لها مقدار ما يعود على عملها من خسارة إذا هى تهاونت فيه . وكانت تطيعه وتعتز بآرائه وتفخر بها . . .

وفى خطوة الواثق ، دخلت حجرة مكتبه لتنظفها . واتجهت إلى الأوراق المبعثرة فوق المكتب تجمعها فى تحفظ شديد ، وتضعها تحت الثقالة حتى لا تطير منها ورقة ...

لم يحدث أن ترك أوراقه مبعثرة هكذا . ! ماذا حدث له اليوم ؟ ألأنه تأخر عن موعده . . ؟

كانت تكلم نفسها ، وهى تجمع الأوراق المبعثرة فى حذر شديد ،

خوفاً من ورقة تتوه منها .. وفجأة وقع نظرها على مفتاح صغير بين الأوراق ..

مفتاح مكتبه ! نسيه ! سقط منه سهواً وسط الأوراق ....

وتأملت المفتاح فى يدها كأنما لم تر مفتاحاً فى حياتها ... وراودتها فكرة :

هل تفتح الدرج لترى إلى أى حد أهمية هذه الأوراق ؟ ولكن ما شأنها هى بأوراقه الخاصة ، ما دام لا يريدها أن تراها ... أليست أوراق عمل ؟ إذن ما سر حرصه الشديد فى إخفائها عنها ؟ وهل بلغت من الأمية ألا تفهم ما بها . ؟

تجاذبتها عوامل شتى ، وهى تقلب بصرها بين المفتاح والدرج ، وكأنما سمرت فى مكانها ، يتقاذفها الإقدام والإحجام ... وتوقف الكون عن الدوران .. والرغبة فى كشف الستار عن المحرم تشدها إلى الدرج .. وتدفعها دفعاً ألى فتحه .. وتصم أذنيها عن كل اعتراض أو تراجع ....

ستتطلع بعينيها فقط وتغلقه . لن تمد يدها إلى محتوياته .. نظرة واحدة فقط ، وترد الطرف فى الحال .. لماذا هذه الأوراق بالذات ؟ وهو لم يخف عنها شيئاً بل كل أسراره يطلعها عليها ؟ !

وفى خلال حديثها مع نفسها فتحت الدرج . .

واصطدمت عيناها بمجموعة خطابات ! لم يكن بالدرج أوراق حكومية . ! لا شىء سوى رزمة من الخطابات الملونة فاح منها عطر هادئ ولكنه نفاذ .. !

وفتحت عينيها وفمها . ولم تشعر بنفسها وهى تهبط على مقعد المكتب أمام الدرج وتمسك بأحد الخطابات وتفضه .

يا لهول المصيبة . خطاب غرامى تصف فيه صاحبته لمساته وعناقه وهمساته ..!

وأتبعته بثان وثالث . كلها تحوى ردوداً على خطابات وصلتها منه .. ومبلغ السعادة التى يرتشفانها معاً .. والشوق الذى تكابده وهى بعيدة عنه .. !!

من تكون يا ترى هذه العاشقة الولهانة ؟ ! من تكون تلك التى يعايشها معها فى آن واحد ، دون أن تبدر منه بادرة تنم على ما يختلج به قلبه من حب محرم ؟

ولم يمهلها الزمن . بل لم تمهلها اللحظة . اصطدمت يدها بمظروف ضخم فأمسكته بين يديها وفتحته .

مجموعة من الصور !

وكانت الصدمة الثانية أشد هولا من الأولى ... أعز صاحباتها ! الصديقة الوحيدة التى تفزع إليها إذا ألم بها ما يكربها ... مستودع أسرارها التى تضن بها على زوجها خشية إزعاجه ....

وكالمصاب بالحمى كانت يداها ترتجفان وهى تقلب الصور فى عصبية وتوتر ... وقلبها يخفق خفقان طائر جريح أصيب بطلقة صائد ماهر فى موضع قاتل ....

أوضاع مختلفة : فى حجرة الطعام وهى تأكل .. وفى حجرة الصالون ،

مضطجعة على الأريكة فى أوضاع مثيرة ... وفى المطبخ ؛ وهى تصنع القهوة ! . وفى حجرة النوم على سريرها ! فوق نبض قلبها ! وحياتها ! وسنوات عمرها التى اختزلت فى هذه اللحظة وانطفأت جذوتها ...! وخلف كل صورة كلمات تعبر عن اللحظة .. والمناسبة .. وهمسة من القلب إلى القلب ....

متى حدث كل ذلك ؟ ! وفى أى وقت ؟ ! وكيف ؟ ! وأين كانت هى ؟!

أسئلة راحت تتزاحم على فكرها المكدود . كتزاحم القطط على حمامة مهيضة الجناح تنهشها فى شره وحشى ...

ولم تتركها اللحظة فى هذه المرة أيضاً لهواجسها ، بل لاحقتها بالرد . كلمات كتبت خلف إحدى الصور ؛ تصف فيها كاتبتها كيف روعها نبأ مرضه الأخير ؛ بينما هى عاجزة عن رؤيته .. ثم تصف لحظة اللقيا خلال فترة وجيزة غابتها عن البيت ....

مرضه الأخير ؟! مرضه الأخير ؟!

كان هذا منذ عام مضى ...

يا للعجب ! لم يحدث مرة أن لمحت عليه أى بادرة تنم على الخيانة ! لم يحدث مرة أن باغتتهما معاً !! كل ذلك كان يجرى فى بيتها .. وعلى الأثاث الذى انتقياه معاً . ! وفى حجرة النوم .. وعلى سريرها . ؟! وهو هو لم يتغير .! ثلاث سنوات منذ بدأت العلاقة .. هكذا فهمت من خلال قراءتها للخطابات ... ومنذ عام مضى انقطعت ، لأنها تزوجت

وسعيدة مع زوجها ..!

من يدرى ! لعلهما عادا سيرتهما الأولى . . . فما السعادة ؟ وما الإخلاص ؟ وما الحب ؟ كلمات أصبحت لا تحمل أى معنى ... وإلا كيف يمكن أن يصدق هذا ! رجل يعيش حياتين فى وقت واحد . كل منهما حافلة بالحب ! والإخلاص ! والتضحية ! حياتين عامرتين بشتى الأحاسيس والعواطف ! دون أن يخطئ فى حساب كل خطوة يخطوها ! أى ممثل مطبوع هذا الرجل !؟ ما العمل الآن ؟ وكيف التصرف؟

وبحذر شديد . وضعت كل شىء فى مكانه . وأغلقت الدرج ، ووضعت المفتاح فوق المكتب ، وبعثرت الأوراق التى لملمتها فوقه كما كانت ، حتى لا يفطن إلى أنها رأت المفتاح ..

وفى البهو جلست تستجمع شتات ذهنها ، حتى تستطيع أن تفكر فى هدوء .

وفجأة أحست بمفتاح يدور فى الباب ، وإذا به يدخل مهرولا ، قائلا وهو يندفع إلى حجرة المكتب :

ـ نسيت شيئاً مهماً جداً ...

وبعد لحظة خرج من الحجرة ليأخذها ـ بدون مناسبة ـ بين أحضانه ، ويضغطها إلى صدره . ويقبلها بعنف ، وهو يردد بين شفتيه :

الحمد لله ... الحمد لله . . !

سمعتها خافتة . ملهوفة . خارجة من القلب ! . وقبل أن تتمالك

نفسها وتقول أى شىء هرول نحو الباب ، وهو يقول :

ـ لن أغيب يا حبيبتى ... سأعود إليك أسرع مما تتصورين .!

وأتبعته بنظرها . وفجوة الباب تضيق فى أعقابه شيئاً فشيئاً إلى أن تلاشت تماماً .

obeikandl.com

obeikandl.com

يوم جديد

obeikandl.com

أطفئت الأنوار .. وغرق المكان فى العتمة .. وتحول الصخب إلى صمت .. صمت لاهث .. وحشرجات مكتومة .. وفجأة انفرج الصمت عن ارتطام بالأرض له دوى المفرقعات .. أعقبه رذاذ من الزجاج . تطاير تحت الأرجل المستكينة للحظة ... فتعاقبت الصرخات . وبدأ الهرج يلف القاعة ... واختلطت الأصوات .. أصوات النساء والرجال .. وهنا سطع نور باهر غمر الوجوه التى لم تلتقط أنفاسها بعد ... وحدقت الأعين المشدوهة حولها . تبحث عن مصدر الصوت .. صوت الحطام . وإذا بربة البيت تجلس فى ركن . وحيدة . هادئة . تنظر إلى ضيوفها بعينين سوداوين غامضتين .. وأمام نظراتهم المتسائلة، تنفجر فى ضحكة كفقاعات الصابون . حينما يضعها صبى لاه فى كوب به ماء ، ويكركر فيها بشفاطة ..!

هكذا هى دائماً فى اللحظات الحرجة ! كل النساء بجانبهن أزواجهن.. كل الصديقات بلا استثناء .. حتى تلك التى تستثقل ظل زوجها ! حتى الزوج الخائن ! حتى صاحب المغامرات ! الكل يجتمع فى ليلة رأس السنة فى بيتها .! الكل يتعانق .. إن حباً وإن رياء .. أما زوجها !! فمعهم نعم ، ولكن !! .

وهى طفلة ، حاولت أن تبتعث حب أمها لها .. أن تعيد اهتمامها بها .. أن تشغلها عن شقيقها الرضيع ، الذى استحوذ على كل عواطفها ، فلم

تفلح ! بالبكاء مرة . وبالانقطاع عن الطعام مرة .. أما ثالثة الأثافى فبالتبول على نفسها .. ولكن ما من عمل عملته ؛ إلا وعوقبت بالزجر والتعنيف ، وأحياناً بالضرب ! الضرب القاسى . ! أبدا لم تعتد هذا النوع من المعاملة قبل قدوم هذا الزائر السخيف ... الزائر الباكى ، الزائر الذى لم يكن يستحق فى نظرها مجرد الالتفات إليه ...

وأعيتها الحيل ، فلجأت إلى الكسر . كسر كل ما يتصل إليه يدها . احتجاجاً على هذه التفرقة الفظيعة التى لا ترى لها مبررا ! مع أنها أجمل وألطف وأهدأ من هذا الخنزير الصغير ، الذى لا يهمه إلا امتصاص اللبن ثم التبول على نفسه . !

الضياع . إحساس يائس لازم حياتها ...

وهى طفلة كانت تفزع من الظلام ، فتقوم من حجرتها ليلا ، وتتخطى الخادمة فى سكون ، وتفتح الباب فى صمت . وتهرع إلى أبيها .. أبيها لا أمها ! فى السرير تتعلق برقبته ، وتندس تحت الغطاء ؛ فيأخذها بين أحضانه — بينما أمها تغط فى النوم بجانبه — ويغمرها بالقبلات ، ويربت فى حنان دافق على شعرها وجسمها وذراعيها الملتفين برقبته . وفى الصباح تستيقظ فتجد نفسها فى سريرها .! ويدخل ليقبلها قبلة حانية قبل ذهابه إلى عمله ...

كم هذا جميل ، ولكنه موجع ! ملك لأمها هو ! تعد له طعامه .. وتلبسه ثيابه .. وتأمره أن يفعل هذا ! وتنهاه أن يفعل ذاك ! ويطيعها ! ثم — وهذا ما يقلقها حقًّا ! — معها فى سرير واحد ينام ...

لطالما تمنت أن ينام معها هى ، ويترك أمها للطفل . سريره بجانبها .. وإذا بكى ما أيسر أن تأخذه فى حضنها ! .

وقديماً حاولت البكاء ليلا . لينام معها .. ولكن أمها أصرت أن تنام بمفردها ! وجعلت الخادمة حارسة عليها ..! تخيفها من العفريت . « وأبو رجل مسلوخة .. » وكانت تموت رعباً ، وتنكمش تحت الغطاء كاتمة أنفاسها حتى لا تشى بوجودها . وحينما تتأكد من نوم الخادمة تتسلل إلى أبيها . وبدقات قلبها من الخوف وجيب ترتعد أن تسمعه البنت « فتحية » المستلقية على الحشية فوق الأرض ، تغط فى النوم ...

وهزت رأسها وهى تملأ الأكواب لضيوفها ، بالسائل الأصفر الجميل :.. وتضحك الضحكة التى تشبه القهوة الفائرة ...

البكاء ! متى نفعها البكاء ..

حينما أخذها والدها إلى المدرسة — أمها أيضاً هى التى أرادت هذا ! ظلت تبكى وهى متشبثة به ، ولكن الأبلة لاطفتها ، وبحنان أخذتها من والدها ، حتى استكانت إليها . وبمجرد أن أصبحت وسط الأطفال ، إذ بالعصا ترتفع فى وجهها . حينما حاولت أن تصيح وهى تفتش عن أبيها ...

وتعلمت كيف تنقطع عن البكاء ، لتحمى نفسها من العصا .. ومع أن العصا كانت أحياناً تلسعها ، إلا أنها لم تقلع عن كسر كل ما يصل إلى يدها من أدوات الأطفال ، إذا ما حاول أحدهم أن يغيظها أو يضربها ! كانت تتحول إلى قطة شرسة بمعنى الكلمة ... وكثيراً ما عوقبت

بالوقوف ووجهها إلى الحائط . ويداها مرفوعتان إلى أعلى ... ولكن ذلك كله لايهم !.

وابتسمت فى مرارة . مرارة لا تمحوها أنهار من الخمر . وهى تنظر بطرف عينها إلى لفتات خفية بين زوجها وهذه الصديقة الوقور .. الوقور جداً .! التى تجلس هناك بجانب زوج .. زوجها طبعاً ! ولكنه زوج من القش !!

حياتها . حياتها هى ! لكم ودت أن تعيشها كما يحلو لها .. كما يحلو لها هى ! لا ظل فيها لإرادة أحد . لأمها ، أو ظل أمها ! أبوها ، يحبها أجل ، ولكنه ، لفرط طيبته ، لزوجته مجرد ظل ...

ها هى ذى حياتها — بعد التخرج — أصبحت أخيراً ملكاً لها . هكذا أصرت ! وهذا الشاب الجسور ، كم هو باهر ! بحكم صداقته لمدير الشركة التى تعمل سكرتيرة له ، يأتى ويقضى معها وقتاً طويلا .. يجاذبها الحديث ..حديث طلى . ذكى . خفيف الروح جداً .. لا تكاد تقفل فمها من الضحك ، وعينها من الدهشة لغرابة ما يقوله لها ...

لم يكن وسيما . بل هو إلى الدمامة أقرب .. فيه بعض القصر .. ولكن فى لباقته وذلاقته طول ! ثم هذه الجرأة التى افتقدتها فى أبيها ... أجرأة هى حقاً ! لابد أنها شىء آخر .. لأنها شىء لم تعهده . ولم تتصور له نظيراً فى اندفاعه ، وتهوره ، وثقته ، وجاذبيته ..

وحينما طلب منها أول موعد لم تتردد ! لم تتردد وهى تعلم أنها شبه مخطوبة لأحد أقاربها . اختارته لها أمها ! ووافق والدها ، برغم علمه أنها

لا تريده ! ولكنها الأوامر .. أوامر والدتها !

كانت تبادرها كلما فاتحها فى الموضوع :

— أسكتى أنت ! الصغار لا يتكلمون ! من أدراك بالشبان وألاعيبهم اسأليني أنا ... أنا أقدر الناس على معرفة ما فيه سعادتك ... سامعة يا بنت ؟

ولكن البنت هزت كتفيها ، وخرجت من الحجرة وهى تغمغم :

— لن أسمح لإنسان أن يختار لى ! إنها حياتى أنا ....

ونقلت بصرها بين المدعوين حتى لمحته . لمحته يهرج كعادته بين سيدتين تكاد كل منهما أن يغشى عليها من كثرة الضحك ...

وتنهدت ... وتذكرت كيف كانت تضحك ... ومن فمها الفاغر على سعته بالضحكات السعيدة ، تسلل إلى أعماق كيانها المبهور ...

هذا حاله دائماً مع النساء ... عشرات المرات تكررت المأساة ....

وعقد عليها مقتحماً كل عقبة ... ووضع أهلها أمام الأمر الواقع ...

وغضبت أمها .. وقاطعها أبوها .. وأقسما أن يقطعا كل صلة بها ....

ولم تكن تدرى أن الصفة التى جذبتها إليه .. وجعلتها تتعلق به ، وتترك أهلها من أجله .. ستكون سبب نكبتها ..

كان لديه من الجرأة ما يجعله يرتكب أى عمل وهو لا يبالى ! .. وإلا فكيف يسمح لنفسه ، ولم يمض عامان على زواجهما ، أن يستضيف تلك الشابة الجميلة زاعماً أنها موكلته ... أتت من بلد بعيد ، ولا أهل لها فى القاهرة ، ومن الواجب أن ترحب بها ضيفة فى منزلهم ، لأنها غريبة !.

وتعيش الموكلة أسبوعاً بينهما .! تخرج معه فى الصباح ، ليعودا ظهرا..! وأحياناً يقضيان النهار فى الخارج ، زاعماً أن ملف القضية سرق وقتهما ، حتى إنهما لم يفطنا للوقت إلا حين قرصهما الجوع !

هذا ، وغير هذا .. أشياء كثيرة .. لا تحصى ولا تعد .. حدثت بعد عامين من حياتهما الزوجية ...

أما الآن ، وعشر سنوات مضت . فقد أصبح المستور علناً .. فلم يعد يجشم نفسه التستر لفرط هوانها عليه ! كل من أعجبته يصطحبها إلى البيت ! وعليها أن تقوم بالضيافة ، وإذا قصرت فالويل لها !....

وارتجفت وهى تتذكر عصا الأبلة ، فى طفولتها الأولى ... وشغب الصغار ، وتحرشهم بها ...

لماذا تقبل ؟! ما الذى يجبرها على هذا الوضع ، وفى يدها سلاحها ؟

عمل المرأة سلاحها فى الملمات ...

سلاحها حقًّا ؟

وماذا يصنع السلاح بغير اليد التى تحمله ، والهمة التى تعرف كيف تستعمله ؟

وابتسمت ابتسامة تقطر صفاراً ...

لقد تحطمت عظام اليد . والنفس التى تعلقت به أصبحت أشلاء !..

كان شرطه الأساسى ، من أول يوم أن تنقطع عن العمل . فلا يعقل أن تكون زوجته سكرتيرة لأحد ..!

والآن . لا عمل إن أرادت أن تعيش معه !

obeikandi.com

ألم تزل تحبه ؟

وازدادت ابتسامتها مرارة . وهى تواجه نفسها بهذا السؤال .

تحبه أجل . ولكن أى حب هذا الذى بقى فى استطاعتها ؟

إن القامة المنتصبة صارت بغير عمود فقرى .. ولا تستطيع حركة سوى الزحف فوق التراب ، وجسدها ملتصق بالأرض ...

وحيث داس روحها ، لم تعد يدها قادرة على الوصول إلى السلاح الذى تراه بعينيها على قيد خطوة منها ...

الحرية تعرفها جيداً .. لكم تغنت بها .. ولكن أوتار حلقها تمزقت : وضاع منها اللحن . حين ضاعت منها الكرامة ...

وهذا كل ما بقى لها من ألوان الحب ....

وقرصها فى أمعائها وخز سكنت ثائره بكأس أترعتها ... شربتها جرعة واحدة كأنما تلقى ماء على جذوة حريق ...

ماذا بها ؟

شىء فى هذه الكأس أضرم ما كانت حرية أن تطفئه من لواعجها ..

وفجأة لعلعت فى جوفها ضحكة . لم تغادر حلقها ...

وبقوة لم تعهدها فى ذراعها منذ سنين ، طوحت بالكأس ، فتناثر زجاجها كالهشيم ، وتألقت فى عينيها ومضة وهى تقول لنفسها :

— عام مضى بأوزاره ..... وغدا يوم جديد !

قطعة من الجلد

obeikandl.com

لم يكن حلمًا تماماً ما مر بها فى هذه الشهور الثلاثة . . . وإن كان أشبه شيء بالحلم . . واقع هو . ولكنه مرفوض . عقلها يرفضه . لا لأنه كريه . ولا لأنه مر . ولا لأنه مؤلم . فما أكثر الأشياء الكريهة والمريرة والأليمة . ولكن العقل مع هذا يقبلها بسهولة ويسر . أما المستحيل الذى يناقض كل تصور للممكن . . .

وسمعت صوت أمها تستعجلها . وهى جالسة أمام مرآة زينتها . وردت عليها تستمهلها . وليس فى صوتها إطلاقًا ما ينم على ما يدور بخاطرها . ما أشبهها بإنسان يسير . ويأكل ، ويتكلم ، ويرقص . وهو نائم . وفى الوقت نفسه يعرف أنه نائم !

ورفعت خصلة تهدلت على جبينها وهى تزجج حاجبيها . كان من عادته أن يقف وراءها وهى تتزين . وتلمع عيناه سرورا وزهوا وإعزازا ، تحت شعره الجميل الذى وخطته أسلاك الفضة ، ويغمز لها مداعبًا كلما التقت عينها بعينه . وكل شيء فى سمائها — وكان هو كل سمائها — أزرق صاف مشرق . وفجأة ، بلا مقدمات ، انقضت الصاعقة من السماء الصافية ، ودمرت كل شيء . .

وهزت رأسها ، كمن تنفض ذكرى مزعجة لا يمكن أن تطاق .

قال لها ، وهما يتناولان طعام العشاء ، وسعادة تطفو على محياها ، بعد يوم قضياه فى نزهة ممتعة . :

ـ أظن ياحبيبتى آن الأوان لأصارحك بما انتويته .

ورفعت عينيها تستطلع الخبر ، ويدها تتحرك بالسكين فى الطبق . . وانتابها ذهول لم تعد تذكر من دوامته إلا كلمات متناثرة : كالشظايا المتطايرة : ـ الطلاق . . . الصداق . . . رصيد فى البنك . . . شىء زهيد . . . ذكرى جميلة !

وصرخت . ووقعت على الأرض . وأفاقت لتجد نفسها على الفراش . وهو يدلك وجهها بماء الكولونيا . وتفرست فى وجهه ما استطاعت وراء الغشاوة الضبابية . ورأت عينيه تبتسمان :

ـ هل صدقت ؟ إنما كنت أمزح . خطرت لى الفكرة وأنا أراك ريانة فى صباك الناضر كالزهرة . . . وجمال السنوات الست التى قضيناها معًا . . . وثلاثون سنة تفصل بيننا . . . . مجرد فكرة . دعابة . . . هل صدقت ؟

وفرحت . ووثبت تعانقه . وتبكى على صدره .

وفى الغد سافر إلى الإسكندرية فى سفرة من أسفاره الكثيرة المعتادة ، لإنجاز مهام تتعلق بعمله . قبّلها بسرعة وانصرف ليلحق بالقطار . . . وفكرت أن تقضى اليوم فى النادى . . . ولكن تفكيرها لم يطل ، لأن أمها دخلت عليها . . .

وضاقت عيناها وحدقت فى المرآة .

لن تنسى وجه أمها بتعبيراته المتناقضة : فيها الكثير من الدهشة . والكثير جدًا من الفرح . ومسحة صغيرة من الأسف تتقاذفها أمواج

الحيرة والمفاجأة السارة .

ـ خطاه العيب ! . الفيلا . والسيارة الجديدة . وإحدى عماراته الخمس : عمارة النيل ! انظرى ماذا كتب : « تكفينى منها جداً هذه السنوات الست فى الجنة . آن لنا أن نفترق بإحسان ، ليجد كل منا لنفسه طريقاً جديداً أكثر ملاءمة لمستقبل أيامه . وسأذكرها دائماً بالخير . وأتمنى ألا تذكرنى بالندم ، أو الأسف » .

وغرقت فى الدموع أياما . . ثم جاءتها الأخبار . . . أنه لا تمر ليلة إلا وهو فى دار من دور القصف واللهو . بين الشراب والغوانى . وفكاهات الصحاب . . .

هكذا إذن !

السنوات الثلاثون التى تفصل بين عمريهما لم تشعر بها . . . كانت مبهورة بأبهته . ووسامته الناضجة ، وحيويته المتدفقة . كانت دون العشرين يوم وقعت عليها عيناه : فاتنة . يتيمة الأب . تدارى الفاقة متجملة بالستر والكرامة . خالطا قبلته ـ وهو ابن الخمسين لماله وجاهه ـ ولكنه أدرك مع الأيام أنها أحبته . من يراه يظن أنه لم يبلغ الأربعين . مرح ، جذاب ، يفيض بالسعادة وبهجة الحياة على كل من حوله وما حوله . صارت تخاف عليه من النسيم . وتهيئ له ما جعل حياته أنشودة سعادة لم تخطر له على بال . واعتقد أن الحياة دانت له ، فراح يمرح معها ، ويجاريها فى كل ما يخطر على بال بشر ، من فنون السرور والاستمتاع . أحس ـ وأحست ـ أنه مثلها فى العشرين ،

ورفلت معه فى البذخ الذى يتيحه الثراء الطائل : فكأنها أميرة من أميرات ألف ليلة !

لا عجب إذن خالته أحبها كما أحبته . ولكن الصاعقة نزلت فجأة . وتكشف الحلم السماوى عن ارتطام أليم بالأرض الصلدة : رجل يملك الثراء والجاه . وفتوة الجسد الفاره ، رأى صبية فاقتناها بعقد زواج — كما كان أسلافه يقتنون الجوارى الحسان بأغلى الأثمان — واستمتع بها ما طاب له الهوى ، ولما ملها طرحها بغير تردد . أنذل هو ؟ يستطيع ألا يبدو نذلا من فى مقدوره أن يدفع ثمن مظاهر النبل بسخاء . وكما قالت أمها يقول الناس :

— خطاه العيب !

أليس قد دفع بسخاء : فدية النذالة . . . وجمود القلب ؟

وأدمى قلبها الجرح الغائر . فانساقت لإلحاح أمها . . . وتفتحت للحياة ، وغشيت المجتمعات . . .

— أنت فى عز شبابك . . فى أبهى أيام عمرك . . من فى سنك لم يتزوجن بعد . ولديك كل شىء : الشباب ، والجمال ، والمال . تمتعى بالحياة . . وألف شاب يتمناك . والليالى تعبق بالمرح . والنظرات الدافئة الدافقة بالإعجاب . . والتودد . . والترقب . . والجو كله يفيض بالغزل . . حتى خطرات النسيم ، وأنغام الموسيقى . . وهمسات الحديث التى تشبه التأوهات . . .

وعاد صوت أمها يستعجلها .

ليلة أخرى . . . ككل ليلة . . .

ووضعت اللمسة الأخيرة فى زينتها . وأسرعت تطفر كالغزال . . . ومع الفجر عادت إلى حجرتها . وجلست مرة أخرى أمام المرآة تستعد للنوم . . .

أللنوم حقا ؟

ما أبعده الساعة عن ذهنها . وعن قلبها !

إنها تخلع ملابس السهرة ، وتتخلص من زينة لقيت بها الناس . فلم تبق لها إلا نفسها عارية ، وقد خفتت من حولها الأصوات والزياط . .

شد ما سعدت هذه الليلة ، إن كان للسعادة مقياس من النجاح ، واللمعان ، والتألق ، وبخور الإعجاب يحرقه الرجال ، فى مجامر من النظرات ، والهمسات . . .

لقد انتشت أذناها . وانتشت أعطافها . وضحكت . ونسيت . . . وتفتحت أمامها وسط هذا الحفل الساهر الباهر صفحات مستقبل لها أن تسطر فيه ما تشتهى .

ولكن هنا ، أمام مرآة زينتها ، وقد خلعت عنها ما لقيت به الناس ، تلاشى الناس . . وتبخر النسيان . وجثمت على قلبها وحشة أشد ضراوة من كل ما عهدته من قبل . . . وتكشفت قمة المرح والسعادة عن عمق الهاوية التى تحت قدميها . . وخرج من الهاوية ثعبان ضخم ، التف حولها ، وراح ينهش فؤادها فى وحشية باردة . . .

لم تبك . ولكن الكآبة شاعت فى كيانها كله .

ورقدت . وتقلبت . ونظرت إلى صفحة السماء من خلال النافذة تسترحمها فبدا لها الفجر رمادى اللون كايبا . . فأشاحت بوجهها إلى الحائط . ووقع نظرها فوق « الكومودينو » على الأنبوبة التى تسعفها أقراصها عند الأرق . . .

وبيد ثابتة تناولت منها حبتين .

ولمعت عيناها وهى تشرب الماء لتبتلعهما . فيم تطلب النوم ؟ وماذا يعد النوم ؟ يوم آخر ؟ وما الجدوى ؟ . . كل ما أدخلته أمها فى رأسها عن العالم الذى لم ينته ، وعن الحياة التى بدأت من جديد ، تبخر . . لم يعد له معنى . حظيت الليلة بأقصى ما تقدمه لها الدنيا من الأمانى . . وها هى كلها فقاقيع . . كحباب الخمر . . يعقب صداعًا حين تخلو لنفسها . . ومرارة . . ويأسا كالحًا ، وفراغًا كالعدم !

وطوحت إلى حلقها بكل ما وجدته فى الأنبوبة . وتجرعت الماء . . .

• • •

الساعة تدق السادسة والخمسين !

الرجل المتألق المتأنق بحب الحياة يعرف ماذا تعنى هذه الدقات . لقد آن لمن تربع على عرش البطولة فى غمرات المتعة والقصف أن يعتزل البطولة من تلقاء نفسه ، ليظل موفور الكرامة قبل أن يتطرق ظل الهزيمة إلى شمس مجده الباذخ . . .

لقد كانت آخر صبواته . ولم يظنوا أنه يتزوج بعد أن أشرف على الخمسين . ولكنه هام بالبنية الصغيرة . . وهام بافتتانها به : وهى كالبرعم الندى . . ووجد نفسه يتزوجها على غير ما كان ينتظر . . . قال لنفسه إنه أراد أن يجرب حياة الزواج مرة فى العمر : مع النموذج الكامل لعروس أحلام كل رجل يعبد النساء . . . !

وراقه أن يجد نفسه بعد الزواج معبود هذه الصبية الحسناء . أحب فيها — وهو المفتون بسطوته على النساء — أنه سيادها : وهو أكبر من أبيها . حتى غدت أسيرة هواه.

ولكن الأيام الحاوة مرت سراعًا . وإذا بالساعة تدق السادسة والخمسين ! . . .

وأنس فى نفسه بوادر خفيفة تهمس باقتراب ساعة الأصيل ، التى تغرب فيها شمس المجد عن ساحات الأبطال المتوجين . . .

آن للحلم الجميل أن ينتهى ، كى يظل كما كان حلمًا جميلا . . .

صورته أمام الناس ، وأمام نفسه ، أغلى دائمًا عليه من كل شىء . .

وفى شموخ من تعود أن يفعل ما يشاء ، كما يشاء ، ويسترخص فى سبيل « هيبته » و « صيته » كل شىء . . . انسحب من حياتها على هذا النحو . . . وعاد كما كان ، نجم ليالى اللهو والقصف ، المتحرر من جميع القيود . . . !

ووجد نفسه يسهر ، ويقصف ، ويشرب ، ولكن رنة جوفاء كانت تعقب كل ضحكاته المجلجلة . . . وعزوفا لا يدرى مصدره

صار ينتابه فى آخر السهرات . . .

كان يبذل لغانيات دور القصف فى سخاء . . . ولكنه ينفض يده منهن مع آخر كأس . . . ويمضى وحده إلى داره . .

ويقول لنفسه : غاشية ثم تنجلى ؛ وأعود كما كنت . . .

ويمعن فى القصف ؛ ولكنه يجد نفسه آخر المطاف فى طريق مسدود . . . .

ومع الضحى استيقظ ذلك النهار ؛ وأدخلوا إليه فى فراشه القهوة ، وصحف الصباح . . . وراح يقلبها فى سأم ؛ ثم وقعت عينه على عنوان استوقفه : « حسناء تحاول الانتحار لأنها طلقت ! »

وقرأ بشىء من الاهتمام الفاتر ؛ ثم لم يلبث أن فتح عينيه على سعتهما ، وقد داهمه شك مفزع ، أتراها هى ؟ كل ما فى أوصافها يوحى بهذا . . . !

ووضع يده على سماعة التليفون . . .

* * *

قال لها ويده تربت يدها فى رفق ، وهى راقدة فى سرير المستشفى الأبيض :

ـ لننس ما فات . . .

ورمقته بعينيها فى عتاب شديد :

ـ كيف هنت عليك ؟

وأغضى . . . ثم رفع إليها عينيه وقد أوحى إليه تعانق اليدين :

ـ حسبت ما كان من سنوات حياتنا الجميلة قفازاً انكمشت يدى داخله . . وخفت أن تبدو فيه هزيلة . . . وجربت أن أخلعه . إبقاء عليك . صدقيني ! عسى أن يجد القفاز يدا تزينه خيرا منى . . .

وزاد فى عينيها وميض العتاب ، فقال هامسًا ، وهو يقبل يدها :

ـ ولكنى لم أستطع . . . وجدت القفاز ـ دون أن أدرى ـ صار مع الأيام قطعة من جلدى . . .

الضَّبَابُ

obeikandl.com

كل شيء كان يوحي بالهدوء والدعة . في ذلك المنزل الصغير . المكون من طابقين . في إحدى ضواحي القاهرة . فالطابق الأول مكون من ثلاث حجرات . ويؤجر مفروشًا للعائلات الصغيرة . القادمة للاستشفاء في مياه الضاحية المعدنية . . . أما الطابق الثاني : فيقطن فيه المالك . مع ابنتيه اللتين فاتهما قطار الزواج . فعكفتا على خدمة البيت والأب . . .

والكبرى « فائقة » ، تربي الدواجن في الحديقة الخلفية للبيت ، وتعنى بفقس بيضها ، ومن نتاجه تبيع « البرابر » للجيران والحبايب . . .

أما الصغرى « لائقة » — وهي تصغر أختها بعشرة أشهر فقط — فتحيك الثياب ، ولا بأس من أن تحيك للجيران والحبايب أيضًا بعض الأثواب البسيطة بأجر « متهاود » . . .

ومن الأجور التي تحصل عليها الأختان ، فوق معاش والدهما . . . استطاعت هذه الأسرة الصغيرة أن تعيش عيشة راضية . . وبفضل الحب المتبادل المتين بين الأختين وتعاونهما في كل صغيرة وكبيرة . . عاش الأب في هناءة وسعادة حتى آخر أيامه . . .

وأشار عليهما خالهما — الشخص الوحيد الذي بقي لهما على قيد الحياة — أن تستغلا مبلغ التأمين على الحياة ، الذي آل إليهما بوفاة والدهما ، في بناء واجهة البيت دكاكين ثلاثة ، لتدر عليهما ماتستطيعان

به أن تضمنا مستوى حياتهما . بعد أن فقدتا جزءاً كبيراً من معاش وندهما . ومع غلاء المعيشة ، الذى أخذ فى الارتفاع . . .

وأمكنهما — بعد بناء الدكاكين الثلاثة — أن تستغلا الحجرة الخلفية ، بتأجيرها مفروشة لرجل متقدم فى العمر ، اختاره لهما خالهما من بين معارفه المحالين على المعاش ، حتى يضمن لبنتى أخته البعد عن القيل والقال . . .

و « فائقة » فى حوالى الخمسين من عمرها ، ولكنها بفضل الحركة المستمرة فى البيت ، ومع الدجاج ، وخارج البيت لقضاء مهمات الغذاء والكساء . وكل ما يخص حياتهما . . . كانت معتدلة القوام ، رشيقة الحركة . خفيفة الوزن . مع بشاشة وجه ، تقرب بها من قلوب من تتعامل معهم . . . كثيرة الكلام ، كثيرة الضحك . سمراء متوردة . . .

أما « لائقة » فلعكوفها دائمًا على الحياكة ، وأشغال الإبرة ، كانت محدودبة الظهر قليلا . . مع اعتلال فى الصحة والمزاج . مقطبة الجبين ، قليلة الكلام ، لا ترى ضاحكة السن إلا فيما ندر . . . ثقيلة الوزن ، مع بطء فى الحركة . . بيضاء شاحبة . . .

ومع كل هذا الاختلاف البين . . كانت الشقيقتان تعبد كل منهما الأخرى ، ولا تطيق أن تراها شاكية أو باكية . . .

كان على « فائقة » — الكبرى — أن تشرف على طعام النزيل الشيخ ، الذى تجاوز السبعين بشهور قليلة . وقد فقد كل من له فى الحياة ، أو بمعنى أصح ، « مقطوع من شجرة » .

أما « لائقة » فكانت تخيط له ثيابه . وترتق القديم منها . وتصلح ما يجب إصلاحه . . .

وكان الرجل مسروراً غاية السرور . . يغدق عليهما . . وكثيراً ما يتحف كلا منهما بهدية ، فى مناسبات الأعياد والمواسم . . ولا يخلو الحال من علبة من الشكولاتة ، أو كيلو بسبوسة ، فى أمسية من الأمسيات التى تكونان فيها قد شملتاه — خلال اليوم — بطعام جيد أرضى مزاجه . . .

ولم يكن « عبدالمقصود بك » وهذا اسمه — يضن بشىء على العانستين . كانت صحته — رغم سنه — تبدو فى أحسن صورها : قوام معتدل . خال تمامًا من الشحم ، وجه أبيض مشرب بحمرة خفيفة . ملامح دقيقة . . ولولا نظارته السميكة جدا — لضعف نظره الشديد — لبدا وكأنه لم يتخط الستين ، أو ربما الخامسة والخمسين . . .

كان أحيانا كثيرة يمر على الشقيقتين ، أثناء عودته ليلا من مجلس القهوة ، فتحتفيان به ، ويعيد عليهما ما سمع من أخبار ونكات . . فتضحك « فائقة » بملء فيها وقلبها . . أما « لائقة » فتنظر إليه بعينين متعبتين ، تضخمت جيوبهما ، لكثرة ما نالهما من إرهاق . . . ولا بأس أن تبتسم بشفتيها أحيانا ، إذا كانت النكتة تصل بأختها إلى حد القهقهة . . .

ومضت الأيام . . .

ودخل الخال ، ذات صباح ، على ابنتى أخته ببشرى عجيبة !

ـ عبدالمقصود بك يريد الزواج من واحدة منكما . . ! إحداكما والسلام يريدها زوجة !

وزل الخبر عليهما نزول الصاعقة . . .

فالزواج شيء مشروع . لا غبار عليه . وعبدالمقصود بك رجل خفيف الدم . لطيف المعشر . مقتدر . مهذب . محبب إلى القلب . . . ولكن في الأمر شيئًا : كيف لم يطلب يد إحداهما بالذات ؟ كيف يترك الطلب معلقًا هكذا ؟ ! ومن الذى يختار له إذا هو لم يختر لنفسه ؟ !

وجلست الفتاتان أمام خالهما ساهمتين . كل منهما تحاول أن تشغل نفسها بشيء في يدها . ودق الخال بعصاه على الأرض ، وقال بصوت فيه حشرجة من أدمن التدخين ردحا من الزمان :

ـ هيه . . . ماذا قررتما يا ابنتى ؟

ورفعت « لائقة » عينيها المتعبتين ، وكانت ـ لدهشة الجميع ـ أسرع من أختها إلى الرد على خالها !

ـ وكيف نقرر نحن ؟ ! عليه هو أن يختار ! . .

وأجاب الخال على الفور :

ـ لقد سألته . أيهما تريد ؟ ولكنه رجانى أن أختار له أنا !

وصاحت « فائقة » وكأنما لدغها عقرب :

ـ تختار له أنت ؟ كيف ؟ من يريد الزواج يختار لنفسه ! أليس كذلك ؟

وقال الخال بصوت متعب :

ــ الحقيقة أنه يقدركما أنتما الاثنتين حق قدركما . . . ولا يستطيع أن يختار إحداكما . فهو عاجز تماما عن التفضيل فيما بينكما !

واشتعل الغضب فى قلب الفتاتين . ونظرت كل منهما إلى الأخرى ــ ولأول مرة فى حياتهما الطويلة ــ نظرة تنطوى على التنمر والموجدة . فقد أصبح على كل منهما أن تتنازل عن العريس لأختها . . . أو بمعنى أصح . تنكر نفسها ــ بل تضحى بنفسها ــ من أجل أختها . . !

ولما أحس الخال بفشل مهمته . ترك للفتاتين مهلة أسبوع . تقرران فيها نهائيًا من منهما التى ستتنازل للأخرى عن العريس الموعود . . .

وانقلب البيت الهادى إلى حرب باردة بين الشقيقتين ، وكل منهما تعمل على إثارة الأخرى فى الخفاء ، ثم لأقل هفوة من إحداهما تنفجر فيها الأخرى بفظاعة ، متلفظة بكلمات لم يسبق أن تفوهت بها فى حياتها فى حق أى إنسان ، فضلا عن أختها توأم روحها !

وانقطع « عبدالمقصود بك » عن زيارة الأختين ، حتى يعلم قرارهما . أما طعامه وثيابه فكانت توضع فى غرفته قبل مجيئه . ولم يعد يرى وجه « فائقة » الضاحك ، ودردشتها التى لا تنقطع أثناء تقديمها الطعام له . ولا يستمع إلى كلمات « لائقة » الرزينة المتزنة التى ترتاح إليها نفسه . . .

وأحس بضيق شديد لهذا التجاهل والتباعد . وخشى أن يكون قد

أساء إليهما بهذا الطلب . وهو فى كل يوم يدقق النظر إلى وجه خالهما . دون أن يجرؤ على سؤاله عنهما . لئلا يظن به الخفة والطيش .

وفى نهاية الأسبوع . ذهب الخال لإنهاء مهمته . بينما « عبدالمقصود بك » يذرع طريق الكورنيش . ذهابا وجيئة لا يستقر له قرار . . .

وأحست الأختان بدنو الفاجعة . . .

يجب أن تقرر إحداهما . . بل يجب أن تتنازل إحداهما للأخرى! إنها فرصتهما الوحيدة . . ! الفرصة التى حرمتا منها فى صباهما الباكر . ! الفرصة التى جعلت منهما عانستين . . وما أفظع هذا الاسم . . وما أبشعه . . !

وجلس الخال تسبقه حشرجة أنفاسه . متهدل الجسم . منحنى الظهر . بادى الإعياء . . يقلب النظر بين الأختين فى هدوء . .

ومع رشفات القهوة السادة . التى أعدتها له « فائقة » قال :

ــ أظنكما قررتما . . .

وقبل أن يتم كلامه انفجرت « فائقة » فى أختها :

ــ هل عندك أنت صحة للزواج ؟ خدمة الرجال تهد الحيل . . !

وذهلت « لائقة » أفجمتها المفاجأة ! والتصريح ! وهى التى تصغر أختها وكان يجب أن تتركه لها .! وهى أحق منها بالراحة من عناء الحياكة التى قصمت ظهرها ، وأوشكت على إطفاء نور عينيها . . ! واتسعت حدقتاها اللتان لم تتسعا لشىء قط خلال عمرها الطويل . . . وفجأة

ألقت برأسها ـ دون أن تنبس بكلمة ـ فوق الماكينة أمامها . وأجهشت فى نحيب عميق . . .

ولم تلبث فائقة أن ارتمت على ركبتيها . أمام أختها ، وجعلت تحتضنها . وتقبلها . وقد اختلطت دموعهما . . .

وفى الظهر . عاد « عبدالمقصود باك » إلى حجرته . ليجدها مغلقة بالقفل . وأمامها ملابسه . وفوقها ورقة مكتوب عليها بخط واضح :

ـ أصحاب الحجرة فى حاجة إليها . لن نؤجرها بعد اليوم . .

وعاد الهدوء إلى البيت الصغير . وتوقفت الجفوة بين الشقيقتين . ولكن شيئًا ظل عالقًا فى الجو بينهما . كأنه الضباب . . . شىء لا يحجب الرؤية تماما ، ولكنه لا يطلق العين على سجيتها . . . وبين الحين والحين تتصاعد فى الصمت الطويل ، الرائن فى الحجرة ، زفرة مكتومة فى هذه الناحية ، تجاوبها زفرة مكتومة فى تلك الناحية . . . والوقت يزحف . . يزحف بلا توقف . . بخطى ثقيلة ، تكاد تشق سكون المساء . . .

الخيمة الزرقاء

obeikandl.com

هدأت الجلبة . . واستقر كل فى مكانه . . واستجمعت شتات نفسها مفيقة من شرودها . . . ومن هناك رأت العروس . يانعة كالزهرة . ندية كالصباح . مشرقة كشمس الربيع . . . وتأملتها . وإذا بشىء يطفر فى صدرها . . شىء أحسته لأول وهلة كالطير المغرد ، يرى الطيور السعيدة من حوله فيقفز نشوان ليحلق بجناحيه . وفجأة يصطدم بأسلاك . . أسلاك قفصه المغلق دون الفرحة والانطلاق . . .

واعتدلت فى جلستها ، واستنشقت نفسًا عميقًا ، لتقاوم الضعف الذى انتابها . . فكأن قواها تنزف وتتسرب من جرح خفى . . .

وأحسته بجوارها . . قريبًا منها جدًّا . . . أحست أنفاسه تلفح وجهها . أحست حرارة جسمه تسرى إليها . وذراعه تحوط كتفيها . . . وابتسمت . . واتسعت ابتسامتها وهى تستشعر دمها يندفع فى دفقه قوية إلى رأسها . . .

فى مقدور الناس أن يضحكوا دائمًا ، وهم يخفون أفظع الأمور . . .

هكذا قالت لنفسها ، وهى تنظر إلى الأزواج والزوجات من حولها . .

هل هم سعداء حقًّا ، كما يبدو على وجوههم ؟ إنها تعرف أكثرهن ما من واحدة فيهن إلا وهناك ما ينغص حياتها . . ولكن ، فى مثل هذه المناسبات . . مناسبات الأفراح ، تحرص كل زوجة أن يكون

بجانبها زوجها . والسعادة تضفو على وجوههن ؛ كأنما خلت حياتهن مما ينغصها . . .

ورنت زغرودة وسط القاعة . والتفتت إلى العروس تحت ضباب طرحتها . . . هذا المنظر الجانبي الرقيق . . وهذا الإكليل الناعم اللامع من الشعر . . . كل شيء يبدو في غاية الروعة والكمال . . .

ها هي ؛ في غمضة عين ؛ أصبحت زوجة لهذا الرجل . . . تنتقل من بيت أبيها إلى بيت زوجها . . فتنقل الخاتم من يد إلى أخرى بعد إيذانا بالزواج ! . .

وهاجمتها مشاعر شتى ؛ حتى إنها لم تتبين شيئاً . . . فقد ارتدت إليها حياتها بأسرها ؛ مختلطة عناصرها ومكوناتها بعضها ببعض ؛ وإذا بالصور تتواكب عليها ؛ صورة بعد أخرى .

أصغر من العروس كانت ؛ حينما زوجها أبوها لرجل يبلغ ضعف عمرها . لم تكن تعدت السادسة عشرة . طفلة غريرة لا تعرف معنى الحياة . . . جميلة كانت ؛ بل قطعة من الجمال الطفلي البريء . . سعيدة كانت . بل في منتهى السعادة . . . فستتزوج من رجل يكفل لها كل ما تصبو إليه من رغد العيش . .

ثم . . . وعلى غير ما كانت تتصور ؛ وجدت نفسها بين ذراعي رجل ضخم . . متوحش . . اقتحم جسدها الصغير في شراسة وفظاظة . . ورغم كل شيء . . . كانت تحبه وتخشاه وتحرص على راحته . . .

تحبه ؟ !

ماذا تعنى هذه الكلمة ؟ أبداً لم تستطع أن تفهمها . . أبداً لم تستطع أن تفك طلاسمها . . فقد سمعت كثيراً عن الحب ، وعرفت صاحبات لها يتدفئن . ويبكين . ويولولن لفراق الحبيب . . ! أما بالنسبة لها . فلم يكن الحب يعنى إنسانا . حتى ولو كان هذا الإنسان زوجها . . ! بل إن الحب عندها بيت آمن ، ونزهات ، وملابس . وحفلات . . .

هل هى غير الأخريات ؟ ربما ! . ولكن . . حتى هذه الأشياء لم تتيسر لها . . .

أعجزها طول عمرها أن ترى ما سيكون من أمر غدها . . . وهى إذ تنظر إلى الوراء ، وترى كل ما وقع لها من تعثر ونهوض . لا تدرى لهما سببا . . .

إن الطلاق عملية بتر . . . فلا تستسلمى لها إلا عندما تشرع الغنغرينة تفعل فعلها . . .

كلام قالته لها امرأة محنكة حينما سمعتها يوما تشكو جدب حياتها . . .

غنغرينة ! يا لها من كلمة بشعة . . .

وهل تزوجت لتنتظر ظهور تسمم الدم ؟ يا له من أسلوب فى إنقاذ الزواج ! !

لم يكن زوجها يمكث معها إلا أياما معدودات . . ثم يشد رحاله إلى سفر طويل ، لقضاء مهام فى الخارج . . وهو سبب مشروع ،

وإنما الذى كان يطعنها فى صميمها هو تلك الطريقة التى بها يسافر . . . فلا وداع ؛ وإنما هو السفر فجأة كأنما لا يطيق البقاء معها . . .

وفى كل مرة كان يغادرها . كانت تشعر بكيانها يتحطم كلما صفق الباب من خلفه . . . وكأن ستارا أسدل بينهما ؛ ولن يعود إليها بعد ذلك . . . أما حينما يعود . فإحساسها به كشخص غريب عنها ؛ بل أدنى إلى إحساسها بنزيل فندق ؛ أتى ليغير ملابسه وينصرف . . .

وكان لا بد من بتر هذا الزواج .

أليس الزواج شيئًا يبنيه إنسانان معا . . . ويستبقيانه معا . . . ويرقعانه ويرتقانه كلما احتاج بناؤه إلى إصلاح ؟

وسألت نفسها ، وهى تنظر فيمن حولها : أهى زيجات بناءة أم هدامة ؟ ولم يكن سؤالها : أهى زيجات سعيدة أم شقية ، فأفضل الزيجات تجمع بين السعادة والشقاء ، أما زواجها فكان شقاء دائمًا ولحظات السعادة تمر بها لا تكاد تشعر بمرورها . . .

كان لا بد أن تشغل نفسها ، فقد انهارت حياتها من أساسها . . انهارت أحلامها . . فقدت كل مقومات وجودها . . .

والطلاق شىء رهيب . شىء مدمر . فظيع . لم تدر بفظاعته فعلا ، إلا بعد انفصالها عن زوجها . . .

هل تتوقف حياتها عند هذا الحد ؟ لا بد أن تغرق نفسها فى

عمل . أى عمل . .

ولكنها تزوجت طفلة . ولا عمل لشابة لم تحظ من التعليم إلا بمبادئه . .

وأدركت أنها مقضى عليها إن لم تثبت قدميها فى الأرض . وتواجه الحياة بكل مرارتها . . . فكلمة « مطلقة » بدأت تلاحقها أينما ملت وجهها . . وشبابها وجمالها أصبحا عثرة فى طريقها : تخشى منها الصديقة على بيتها وزوجها . . . وتتبعها الذئاب البشرية فى كل مكان تذهب إليه . . .

أليست مطلقة ؟ أليست صيدا سهلا ؟ !

كان الألم يتناوشها . وهى تفتح عينيها كل يوم على أشياء كانت خافية عنها تماما . . . أشياء لو كانت عرفتها لما تحطمت حياتها الزوجية بهذا الشكل المروع . . .

ما أيسر ما كانت تلوم نفسها . . .

أدركت أخيراً أن اللوم إجراء خادع . . وأنه تزييف للحل الذى تريده ، وتحاش من مواجهة الواقع بصراحة . . . هذا الواقع الذى تخشى مواجهته . . .

واستطاعت أن تتغلب على كل شىء ، وأن تمشى قدما نحو غايتها . .

وخلال سنوات قليلة أثبتت وجودها فى عالم العلم . .

ولكنها امرأة بعد كل شىء . . والحب عندها لا بد أن يضرب

بجذوره فى الأرض ؛ فى صورة حياة وأطفال وبيت . . .

وكان وقوعها فى شراك الحب أمراً لا مناص منه . بعدما رأت من اهتمام أستاذها مدحت بها ؛ وترصده حركاتها أينما ذهبت . ولم يكن لها قبل بالمقاومة ؛ وقد وجدت نفسها موضع رعاية على هذا النحو ؛ وهى الكسيرة الخاطر .

ولم يكن مدحت بأقل منها رغبة فى ربط حياته بحياتها . كان يريدها زوجة ؛ وأمًّا لأولاده ؛ ورفيقة لحياته . ولا يعنيه بعد ذلك أن تتعلم وتعمل . . .

ولكن الأيام علمتها أن تؤمن حياتها ؛ ولا شىء يمكن أن يعصم المرأة سوى العلم . . وليس هذا لشك فى مدى حبه وإخلاصه ؛ هذا الحب القوى الذى داس على كل العقبات ليثبت لها صموده . . . ولكن لأنها أحبت العلم حبها للحياة نفسها . . .

كانت آمالها عريضة فى الكلية التى ستلتحق بها . وفيما ستحققه من مجد فى هذا النوع من التعليم . . وكانت آمالها أعرض فى إنجاب أطفال لذلك الرجل الشهم الحنون ؛ الذى عوضها حبًّا وحنانا ورعاية بعد كل مالاقت . . .

ولكنها للأسف والحسرة لم تستطع أن تحقق أيًّا من الأملين : فلا هى أحرزت مجموعا يخول لها الالتحاق بالكلية التى تتمناها . . ولا هى أنجبت أطفالا لعيب فيها . . .

هكذا صدمها تقرير الأطباء بعد علاج طويل لم يسفر إلا عن خيبة . . .

أما هو ، فقال لها وهو يحتضنها بحنان :

— لا يهمك . إنهم بشر . مهما كانت درجة معرفتهم . . . الأمر ليس بيدهم ، بل بيد صاحب الخيمة الزرقاء . . .

ورفع يده وعينيه إلى فوق . . .

وتململت فى جلستها . ويده تزداد ضغطًا على كتفها . . .

ورفعت عينيها إلى النافذة عبر رأس العروسين ، فإذا رقعة صغيرة من سماء صافية ، وعصفور يطفر فوق فرع شجرة خضراء .

الأفق المفتوح

(٥)

obeikandl.com

ظنت أنها ستنسى . . اعتقدت أن الأيام ستخمد نار الذكرى فى مكان هادئ من أعماقها ؛ ما دامت لا تمتد إليه يد النبش والتنقيب . . .

اتخذت هذا القرار ، بعد أن أصبحت فى حالة لا يمكن استمرار الحياة معها . . . فما تسير فى الطريق إلا وتحسه خلفها . . ! خلفها فعلا بلحمه ودمه . ! فتلتفت لتصدم عيناها بالواقع المر . . . وما ينتزعها النوم من واقعها . حتى يسرع إليها طالبا منها أشياء وأشياء ... طالما لبتها له فى حياته ، عن طيب خاطر . . وبكل حريتها ، وما تحمل له من حب بلغ حد الهوس . . .

إذا قيل إن الموتى لا يبعثون . . لا يبعثون فى الحياة الدنيا . . فهو قول خطأ ! نعم قول خطأ . . فما يمر يوم إلا وتراه . . تراه بهيئته التى رأته عليها آخر مرة فارقها فيها . . وغالباً فى أحلامها تراه يفتح لها ذراعيه ، ويناديها . . وهو ما كان يفعله كلما ذهبت إليه . .

ذهبت إليه وكررت الذهاب . . فالمفروض أنه سيكون خطيبها لولا أن ظروفا — من جهة أهلها — أجلت الخطبة ستة أشهر . . ستة أشهر لم تستطع أن تحتجزها عنه . . وما كانت لتكتفى باللقاءات عندهم ، فى البيت ! فمسموح له أن يزورها دائمًا . . بل راحا يتلاقيان فى بيته . . لقاءات مستعرة . . فكيف لشخصين جمع بينهما حب جارف أن

يتحكما فى عواطفهما ؟ !

لن تنسى ما عاشت ذلك النور الذى أضاء وجهه وهو يتناول يدها ، ويؤكد لها أن زواجهما قد تم فى السماء . زواج له أسراره الخاصة . . وكيف ابتسم وهو يقول لها إنها الآن « سوتى » . ولما رأى وميض الدهشة والاستفهام ضحك وقال لها :

ـ سوتى لفظ هندى قديم معناه « المرأة الفاضلة » . والهند بلد الغوامض والأسرار ، من قديم الزمن ! . والزواج الذى يجعل الفتاة « سوتى » يدمجها فى زوجها ، روحا وجسدا . . فلا يحل لها أن تفترق عنه ، حتى ولا بالموت ! . نعم ، حتى الموت لا يفرقها من زوجها يا حبيبتى . . . فإذا ترملت ، لا يكفى السوتى أن تظل وفية لزوجها الراحل ما عاشت ، فلا تعرف سواه . . كلا ! بل يجب أن تظل متحدة معه بجسمها ، لا بروحها فقط . لذا ترحب بالموت معه ، كى يظل رماد جسدها مختلطاً برماد جسده ، فى محرقة واحدة ! تحترق وهى حية مع جثمانه ، سعيدة باستمرار زواجهما الأبدى !

وضحكت . وضحك . ولكنها لم تنس . . . وظل اسمها السرى كلما ناداها فى خلواتها « سوتى ! سوتى » !

لم تشعر يوما بالندم . فهى تحبه . . وهو يفتديها بنفسه . . وزاد اندماجهما ارتفاعا فى ترمومتر حبهما . . فآمنا أن لا حياة لأحدهما بعيدا عن الآخر . وهكذا مرت الأيام ، ولم يبق على تحقيق آمالهما إلا خمسة عشر يوما . .

نعم . خمسة عشر يوما ، وما تدرى إلا والقدر ينعاه إليها !! كيف حدث هذا ؟ ولماذا ، وهو فى أوج شبابه وصحته ؟! هكذا انتهت حياته . . انتهت بالمعنى المفروض والواقع الملموس . . أما بالنسبة لها فهو يعيش معها . . دقيقة بدقيقة . . ولحظة بلحظة . . كل ما هناك أنه أمسى متواريا عن الأنظار . . .

كانت تقضى الوقت تكلمه ، كأنه بجانبها . . وجهه أمامها . . يتحرك فى كل مكان من الحجرة . . ولكن مأساتها أنهم لم يتركوها بمفردها . . دائمًا يقطعون عليهما خلوتهما . . حتى سئمهم ، وسئم تدخلهم الذى لم يكن يحدث أثناء حياته ، فراح يطلبها إليه ويلح .. خصوصا أثناء نومها . . كان يطلب منها بإلحاح أن تتبعه ، وكانت تمهله . . .

انتهى الأمر . . وباتت ترى من واجبها أن ترفض كل من يتقدم إليها . . وما أكثر من كانوا يتقدمون . . فهى جميلة ، شهية — على حد قول كل من يقع نظره عليها — ولكن « كيف تتزوج من اثنين » ؟ ! هل يحق للمرأة أن تجمع بين رجلين ؟! هى له : كانت له وهو على قيد الحياة . . ولم تزل على عهدها لأنه يشاركها حياتها . . .

هل تبوح لأهلها بما قطعته على نفسها من عهد ؟

كيف ؟ سيتهمونها بالجنون . ! سيأخذونها فورا إلى طبيب أو مستشفى نفسانى . . وتقضى عمرها فى مصح . .

ضيقوا عليها الخناق . وتعللت بكل تعلة . . أظهروا أنهم

مقتنعون . وصدقوها حينما قالت بعد أن تتم تعليمها . . واستمرأت حياتها ؛ وتركت لنفسها العنان مع طيف حبيبها . . .

ما بالهم ينظرون إليها هكذا ؟ لعل شيئًا فيها قد تغير ؟ إنها ترفضه ؛ كما رفضت عشرات من قبله . . هذا الشاب الذى تقدم يطلبها — ولكنه ممتاز . « هائل » . . من جميع الوجوه . .

لماذا ترفضينه ؟ أفى حياتك غيره ؟ قولى لنا ونحن مستعدون أن نزوجك ممن تشائين . .

هكذا قال لها أهلها بعد أن تعبوا منها . . وبعد أن تخرجت وأصبح من المحال السكوت على انطوائها غير المفهوم . . .

ماذا تقول ؟ أتقول إنها متزوجة فعلا ؟ مصيبة ! ومصيبه مزدوجة أن من تزعم أنه زوجها فى عداد الأموات ، فى نظرهم . . .

ما بال هذا الشاب ليس كالآخرين ؟ ولماذا يتركونهما دائمًا منفردين ؟ صحيح أنه لطيف . خفيف الروح . . أيكون هذا مبرراً لتركهما دائمًا معًا ؟ !

غريب أيضًا أن يتركوها تخرج معه . . قالوا لها إنه « مصطفى » ابن عمتها . . كان يدرس فى الخارج ، ثم هو فى منتهى الأدب والرزانة . وهو شديد التحكم فى عواطفه أثناء خلواتهما ، مع أن حبيبها كان يفقد توازنه كلما انفردا . . . يبدو أنه شديد الاعتداد بنفسه . . أو لعلها فقدت جاذبيتها من طول ما انطوت على نفسها . . .

ولماذا هى مهتمة به إلى هذا الحد . ؟ وماذا يضيرها لو أنه عاف

الحديث معها ؟ ليست مرتبطة بغيره ؟

لقد أخبرته . . نعم أخبرته فى إحدى جلساتهما الطويلة . . هو الوحيد الذى فهمها . . !و أنها باحت بهذا السر لأحد غيره . لاعتبرها مجنونة — أو على الأقل — اعتبرها مهزوزة . . أما هو فتقبل اعترافها بصدر رحب . . وبمنتهى الفهم . .

اللئيم ! كيف كان يشدها إلى الحديث بمهارة ! كيف كان يغريها بأسئلته الناعمة بالكشف عن أعمق أعماقها ! !

ولأول مرة فى حياتها تختلى بنفسها ليلا . ! لم يشاركها حبيبها الغائب خلوتها ! ! وراحت تستعيد ما كان بينها وبين مصطفى من حديث . . .

ونامت نومًا عميقًا . وأصبحت وكأنها ولدت من جديد ! إنسانة مستقلة . يدفعها شعور إلى الانطلاق . وتستولى عليها رغبة فى زيارة كل مكان حرمت نفسها منه هذه السنوات الطويلة . .

والغريب أن طيف حبيبها اختفى تماما . ! والأغرب من ذلك أنها لم تفتقده . ! وإنما هو مصطفى . ! ابن عمتها الذى تتمنى لو يطوف بها كل متعلم من معالم القاهرة . . .

كان موعدها مع مصطفى مساء ذلك اليوم . . وذهبت إليه مشوقة . . وقابلها بترحاب . .

شىء فيه يحدثها بأنه تغير : هذا اللمعان فى عينيه كأنه مشروع غمزة لا تتم أبداً ! . . وتشممت بأنفها فلم تتنسم سوى رائحة

« الأولد سبايس » تنبعث من ذقنه الناعم اللامع . . . لقد جود الحلاقة أيضًا . . .

وانتبهت على يده تمتد نحو خصرها . وانتابتها قشعريرة كتمتها بصعوبة . . وظلت أعصابها — تحت بشرتها — كالأسلاك الشائكة . . . وهبطت أنامله برفق لترتفع مرة أخرى بسرعة أمام وجهها وبين إصبعيه فتلة بيضاء كانت عالقة . بثوبها . . وضحك ، وضحكت أكثر منه . . ضحكة عميقة طويلة منطلقة ، كانت أعصابها تتمطى . . ! وكأنما أفرغت الغيمة القاتمة مطرها فجأة . فغسلت صفحة السماء . وغرقت هي في صفائها كالعصفور المحلق في البكور . . .

كانت كأنها تطير فعلا . . وهما في الطريق إلى السينما . .

وجلست إلى جوار الممر مباشرة ، وجلس بجوارها ، وفي عينيه تلك الغمزة التي لا تتم . ! تتسع فتغمر وجهه كله ، وتظهر في خديه غمازتان عندما يضحك ، وتجد نفسها منساقة معه في الضحك ، كأنهما طفلان أخذتهما حميا السباق في خلاء تفترشه الأزاهير . . .

وأظلمت القاعة . وبدأ العرض . . وامتص « الكارتون » اهتمامها . . ووجدت نفسها تصفق بيديها مرحًا كما كانت طفلة . . .

وانتبهت على يده تربت يدها فالتفتت إليه لتطالعها في العتمة الشفافة نظرته الضاحكة السعيدة ، كأنه أب يرقب مرح طفلته في حديقة الملاهي ، وبسرعة التفتت نحو الشاشة مرة أخرى . .

ولم تعد المشاهد بعد هذه النظرة تمتصها . . صار ذا وقع آخر : وقع الخيط الرفيع يربط بينهما . . وجعلت تختلس النظر إلى وجهه ، وهو يتابع ويضحك . .

وأحست على ذراعها من جهة الممر لمسة تعرفها جيداً . .

لقد عاد !

لم تلتفت . كانت تعلم أنه واقف ، وأن لا أحد يراه سواها . .

وتصلب كيانها كله . إنه يدعوها لتذهب معه وتترك مقعدها . . وتململت فى مكانها ، ولكن يدها امتدت — من غير أن تشعر — وتعلقت بذراع مصطفى . . وربت مصطفى على هذه اليد مرتين ، من غير أن يحول وجهه إليها . . فى ألفة واطمئنان . .

ومن غير أن تلتفت إلى يمينها ، شعرت أنه مشى ، كما تسرى الأطياف . . ووقف بباب السينما ينتظر خروجها إليه . . وانتابتها رجفة ، وزادت تشبثاً بذراع مصطفى . . وفى هذه المرة نظر إليها فى قلق . .

— الجو هنا خانق قليلا . . أتحبين أن نخرج ؟

ومن غير أن تتكلم نهضت ومشت متعلقة بذراعه . .

وعند الباب تلفتت خلسة كأنما تستطلع الجو . . ولم تبصر له أثراً . .

— أين تحبين أن نذهب ؟

وأجالت بصرها هذه المرة بحركة واسعة : كأنما لتستوثق ؛ فلم تطالعها إلا السماء الصافية ذات النجوم . . .

وضغطت على ذراعه . وهي تستمرئ مس كيانه لصق جسدها . وابتسمت وهي تأخذ نفسًا عميقًا . .

— إلى مكان . . . أرى فيه الأفق المفتوح . . .

obeikandl.com

obeikandl.com

حكايـة قـفّـاز

obeikandl.com

خمس سنين . . .

وهبطت بثقلها فوق المقعد الوثير . . وتنهدت . وكأنما ريح هبت من أعماقها ، لتهتك ستارا عن ماض غاف ، يستفيق فجأة ويتمطى ، وينشر ذراعيه ، فتختلط المرثيات ... ها هما عيناه ، السخيتان بالحنان ، وصوته المتهدج .

ـ خمس سنين . شيء فوق الاحتمال . وأظنك توافقيني على هذا ؟

وتجيبه في إصرار :

ـ ولكنها مسألة مستقبل يارءوف . .

وينظر إليها في عتب أليم :

ـ مستقبلك بجانبي ، وسنبنيه معا في أي مكان نوجد فيه .

ـ ولكن . . . كيف أرفض فرصة عمري ؟

ـ عمرنا واحد ، وإذا فرقناه أصيب بشلل . .

ـ أما أنا فلا أرى رأيك . أنت تعمل وتدرس هنا ، وأنا أدرس هناك . فنثرى بمعلوماتنا ، ونصبح شيئاً كبيراً . . حينما نجتمع مرة ثانية . . .

وعض شفته السفلى في غيظ المقهور ، وقال :

ـ وأنا لا أستطيع . .

ودق الأرض بقدمه . . . وأعقب ذلك إحساس بالتخاذل بدأ يدب فى أعضائها :

ـ ماذا لو رفضت البعثة ؟ .

وأفاقت على اهتزاز الطائرة بعنف إثر مطب هوائى . وتقدمت منها المضيفة فى ابتسامة مشرقة ، تحمل إليها شيئًا تأكله . واستدارت تنظر ، من النافذة بجوارها ، إلى الفضاء اللانهائى . وهزت رأسها فى عجب :

ـ من كان يظن ؟

بعد ست سنين من الحب الجارف . والإعداد للمستقبل معا . . .

وابتسمت ابتسامة باهتة .

حينما دخلت المشرحة أول مرة . ورأت الجثث ، أصيبت بإغماء . وقيل إنها لن تستطيع مواصلة الدراسة بكلية الطب . فهى رقيقة ، رهيفة ، لا تحتمل المناظر البشعة ، بل هى أقرب لدراسة الفنون منها لدراسة الطب .

وأثبتت بنت السابعة عشرة ـ ياه ! ما أبعد هذا التاريخ ! إنها أصلب عودا من كل تهاويل وأشباح « قصر العينى » .

وفى المشرحة أيضًا ، التقت بالعينين السخيتين بالحنان أول مرة ، وكأنما كتب عليهما ألا تومض شرارة الحب فى قلبيهما إلا عبر جثة ! .

ورفت على زاوية واحدة من زوايا فمها ابتسامة خفيفة منحرفة . . . يالها من بداية !

سنين عاشتها ، جمعت بين الغرابة والطرافة . . كل جديد لم تألفه

سواء فى عالم العلم . أو عالم الحب . . !

بل إن العلم استغرقها . حتى لقبت بين أترابها « بالعالمة الصغيرة » !

وتملكها الجد . وهى تلمح فى الضباب — ضباب العالم الخارجى ، من خلف نافذة الطائرة — عينيه تومضان بالعرفان ، وبالتعلق الذى كانت تراه يشع منهما . كلما وقع فى مأزق وأفتته بما يفرج كربه . . .

كم من مرة رفع إليها تلكما العينين ، فاستشعرته بقلبها الحساس ، كطفل تردى فى حفرة ورأى يدا تمتد إليه لتخرجه منها . . .

كان طفلا كبيراً . . . ولكنه كان إنساناً . . احتواها حبه حتى لم تعد ترى فى عالمها سواه يمكن أن يملأ رحاب قلبها الذى لم يدخله أحد قبله . . .

أما هو ، فكانت له الحبيبة والسكن . . إليها يهرع فيجد الراحة ، ومنها يستلهم الحياة . . .

كانت حياتهما جدا ، تتخللها أويقات من الهيام الصامت ، انتظاراً للنهاية السعيدة ، التى كانا يعدان العدة لها ، كلما ضمهما مكان بمفردهما . . .

سعادة ما أحراها أن تدوم . . أبدا لم تفكر لحبهما غير هذه النهاية . أما هو ، فإن المسألة عنده كانت فى حكم المنتهية — انتظاراً — ليوم التنفيذ . . .

وتخرجت بامتياز ، فعينت معيدة فى نفس الكلية . أما هو فعين طبيبًا فى وحدة من الوحدات المنتشرة بالقرى . . .

وكان لا بد أن تعمل بجد ؛ لتحضير بحوث الدراسات العليا . ولم تأل جهداً معه ؛ لحثه على مواصلة البحث ؛ فلم تعترف بالنتيجة التى بعثت به إلى القرى ؛ مع أنه كان من أنبغ الطلاب . . .

ـ حظوظ . . !

- هكذا قال هو ، أما هى فكانت على يقين أن حظه ينتظره ، وسيناله يوما . . .

وتعلقت عيناها بنقطة فى الفضاء ، وهى تسترجع كلماته العاتبة .

ـ ألم يكن هذا اتفاقا بيننا من أول يوم ؟

ـ نعم ياءوف ولكن الحال تغير . .

ـ بل أنت التى تغيرت . . .

ـ لا تقل هذا . لا يمكن أن أتغير . إنما أردت التأجيل لحين انتهاء هذا العام الأول من الدراسة العليا . . كيف يمكن أن يخطر ببالك أن أعيش بدونك ؟

ومضت عيناه ؛ تلك الومضة الناطقة بالعرفان والتعلق ؛ فانفجر فى قلبها ينبوع الأمومة دافقاً بالحب والحنان ، والتقيا فى ضمة أودعاها أشواقهما وحبهما وحنانهما كله . . .

وتنهدت ، وهى تتجاوز المضيفة الجميلة بعينيها إلى الشابة التى تجلس فى الناحية الأخرى ، بجانب شاب من المرجح أنه خطيبها . حركاتهما تدل على ذلك . .

كان إعلان البعثة ، واختيارها بالذات ، مفاجأة لم تكن تتوقعها .

أذهلتها . ولفرحتها لم تضع فى اعتبارها أى شىء آخر . سوى أنها أخيراً ستسافر . لتنال ما تطمح إليه من إجازات علمية .

ولكن الخبر نزل على رءوف نزول الصاعقة . . .

كان غاضبًا . . وحانقًا . . ومتوسلا . . ولكنها طمأنته أن السنوات ستمر سريعًا . وأن الخطابات ستنوب عن اللقاءات . . وودعها بالدموع والعهود الساخنة . . سخونة لن تبرد !

ومر العام الأول . وبدأت خطاباته تقل . ثم علمت أنه تزوج !

لا تستطيع أن تلومه كل اللوم . . لقد علمتها هذه السنوات أن الحياة لا يمكن أن تتجمد . وأن كل ساخن لا بد أن يأتى عليه وقت يفقد فيه سخونته . . . حتى العهود . . . ماذا ؟ بل لا سيما العهود ! ! . .

وداعبت إحدى زوايا فمها ابتسامتها الخفيفة المنحرفة . .

ترى كيف يبدو الآن ؟

وأخرجها من عالمها صوت المضيفة . فى الميكروفون : تعلن وصول الطائرة ، وأن عليهم الاستعداد وربط الأحزمة .

* * *

ستة أيام وهى موزعة بين المهنئين . وبين كليتها . .

وفى ضحى اليوم السابع ، قيل لها فى الكلية إن زائراً يريد مقابلتها .

وابل من الأسئلة السريعة عن الغيبة الطويلة . . . وتلك البلاد البعيدة . . .

ـ مصادفة رائعة . . . جئت بعد نقلى للقاهرة لأفيد اسمى لدبلومة الجراحة . . . الأرياف لم تكن تسمح لى بالدراسة . . . وعلمت أنك عدت . . . وأسرعت طبعًا . . . الحمد لله على السلامة . . .

أبداً لم يتغير . . . هو هو بلحمه ودمه !

هو هو بلحمه ودمه ؛ أجل ؛ ولكن . .

ولاحقتها أسئلة جديدة . وكأنما ضغط على زر حينما سألها عن أبحاثها ، وفى عينيه ابتسامة العارف مقدما .

ـ فى أمراض الأطفال طبعًا ؟ كان هذا اتجاهك من البداية .

وهزت رأسها باسمة :

ـ لا . . . كانت أبحاثى هناك كلها فى السرطان . .

وتطلع إليها بدهشة . ووجدت نفسها تحدثه باستفاضة ، كيف شدتها إلى هذه الأبحاث زيارة لمستشفى مخصص لمرضى السرطان ، وما رأته هناك من ألوان العذاب الذى لا يحتمله البشر . . .

وبدأت « لكن » تسيطر عليها . . . شىء ما وراء اللحم والدم فيه تغير . . نظرته شاردة ، وتلك الومضة فى عينيه لم تعد تطل من وجهه . وكأنه طفل امتدت يد لإنقاذه من حفرة تردى فيها .

شىء أهم من السرطان يلح على دماغه ويستغرقه . . .

ولجأت للتجربة . . . سكتت فجأة ، وسط جملة ، فلم تتمها . . ولم تتحرك أهدابه ، ولم يبد عليه أنه شعر بسكوتها . . وتحرك شىء فى قلبها . . . ترى ماذا يكربه ؟

ووضعت يدها على ذراعه ، برفق يشبه الحنان القديم . . .

ـ رءوف ! . . ماذا يشغل بالك ؟

وطفت على فمه ابتسامة ، كأنها قشرة موزة طافية على وجه ماء راكد فى بركة . . .

ـ أبداً . . . أنا مستمتع بما أسمعه منك . . . لاشك أن أسباب الحياة متقدمة هناك جداً . . .

ياله من تعليق !

ووجدت من الأدب أن تسأله عن زوجته . .

ـ بخير . . .

ـ وهل استقر بك المطاف فى القاهرة أخيراً ؟ . .

ونظر إليها كالطفل المستغيث ، وقال بأسى :

ـ استقر . . .

وتنهد وصمت . . .

وبحذر من تخشى أن تحرك ناراً كامنة تحت الرماد ، سألته :

ـ أهناك ما يعكر صفوك يا رءوف ؟ . صارحنى . . .

وبحرارة حقيقية هذه المرة التفت إليها .

ـ القاهرة . . القاهرة ! لا بد أن ننتقل إلى القاهرة ! . . وأخيراً جئنا القاهرة . . . وفى أربعة أشهر ١٧ شغالة تقلبن علينا . . . وأخيراً ثلاثة أسابيع بلا شغالة . . . وكله يهون إلا غسيل الأوانى . . . تصورى حتى قفازات المطبخ لا نجد منها نوعاً واقياً من الماء حقاً ! . .

وجربت قفازات الجراحة . . . وهذه أيضًا لم تنفع !

وزفر ، وأطرق فى صمت .

وأتأرته بنظرة طويلة متأملة . . . وقالت بابتسامتها الخفيفة المنحرفة :

ـ مأساة . . !

وعندئذ فقط تحولت إليها عيناه ، بتلك الومضة المتألقة بالعرفان والفرح بالمشاركة ، وقال بحرارة :

ـ فعلا . . . مأساة !

obeikandl.com

obeikandl.com

صـــفــــاء

obeikandl.com

انكمشت البنت « صفاء » فى مكانها .. والتصقت كالقرادة بصندوق المثلجات الأحمر ، الذى تقف عليه أمها وعلى كتفها أختها الصغيرة « حمادية » ، أمام باب المدرسة ، وعينها على الناحية الأخرى من الشارع ، حيث العمارة التى يسكنون بدروبها .. وتعتبر أمها نفسها — ويعتبرها السكان أيضاً — قائمة بأعمال البواب رفض المالك الجديد استخدامه .. ولقمة من هنا على لقمة من هناك ... على قروش يكسبها والدها ، عندما لا يكون مريضاً ... والأيام تمضى ...

لم تنكمش البنت « صفاء » من البرد — ولو أن الجو بارد بالنسبة لهذا الوقت من السنة — بل لأن « أم الهول » ألقت عليها ظلها .. و « أم الهول » طويلة . عريضة . بيضاء اللون . لها عينان واسعتان كعيون البقر ... ولكن الأخطر من هذا كف يدها التى تنقض كالصاعقة فوق « أنخن قفا » فى الفصل ... وليس « أم الهول » اسمها الحقيقى بالطبع ، فهى « أبلة سنية » معلمة الحساب ... توقفت فى طريقها بعد خروجها من باب المدرسة بخطوتين ، ووضعت يدها الرهيبة على رأس « صفاء » .. فلا عجب انكمشت البنت كالقطة المبلولة ...

— مبروك لبنتك يا أم صفاء ، ٤٩ من خمسين فى الحساب . الأولى على الصف !

وحاولت « أم صفاء » أن « تفرقع » زجاجة مثلجات للست سنية ،

ولكن الست سنية اعتذرت ، ورفعت يدها عن رأس صفاء ، لتهبط — لكن بلطف — على خدها ، وتداعبها بأصابعها الطويلة السمينة ...

كفها ما أشبهه بمطرحة مغطاة بالدقيق الأبيض .. اولا هذه الأظافر الحمراء كالطماطم ..!

وانتفضت البنت صفاء ، وطارت الفرحة التى عششت فى يافوخها :

— طماطم ؟ يا خبر !

ونظرت إلى النقود فى يدها .. وراحت ترفع رجلا وتخفض أخرى ، بحركة « محلك سر » ... « بريزة » أعطاها لها « الأستاذ برغش » ساكن الدور الثالث منذ دقائق قائلا لها ، فى جد أشبه بالزجر :

— بسرعة يا صفاء : كيلو طماطم وحزمة جرجير . جرى فى جرى ! أريدها للغداء بعد خمس دقائق يا بنت !

وما إن ابتعدت الست سنية خطوة واحدة .. حتى كانت البنت صفاء تنطلق كالصاروخ .

صاروخ نعم ... ولكن متعدد المراحل .. فلم تكد البنت تصل فى جريها إلى ناصية الشارع حتى توقفت عن اندفاعها فجأة ... وتسمرت عيناها على ولد فى يده بندقية رش ، يحاول بها اصطياد اليمام من فوق شجرة عالية ، داخل سور حديقة ... ولم تفلح محاولاته المتكررة فى إصابة شىء منها .. وهى ترقب حركاته بانتباه شديد ، وهو يرمقها شزرا .. ثم يتظاهر بتجاهلها ... ويكرر المحاولة بأناة شديدة ، متصنعاً عدم المبالاة . .

ولد خائب... هى ليس عندها بندقية مثله .. لو كان عندها لرأى كيف تقع العصافير حولها عشرة ، عشرين ، ثلاثين ، أربعين ، خمسين ، ٤٩ من خمسين ...!

وتحركت ببطء ، وهى تطوح رأسها على نغمات غير مسموعة ، ذات اليمين وذات الشمال : صفاء أمين ! ٤٩ من خمسين ! صفاء أمين !. الأولى على الملايين ...!

والتصقت بالسياج وهى تدندن .. ونظرت داخل الحديقة . من بين أعواد السياج الحديدى .. ورأت قطة « جيجى» السوداء ، ذات الطوق الأخضر والجلجلة الصفراء .. وناداتها . ولكن القطة لم تتحرك ، ولم تنظر إليها .. وظلت مستسلمة لمداعبة أشعة الشمس فى استمتاع .. ومدت صفاء يدها الصغيرة بالبريزة الفضية ، وراحت تضرب بها أعواد السياج الحديدى ، وهى تسير بجواره فى تراخ كتراخى القطة .. وتعد ، وهى سائرة فى طريقها ، ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ... ، ٤٣ ، ٤٤ ، .. كل رقم بنقرة على عود فى السياج . . ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ .... ها ها ... هذا يكفى ٤٩ من خمسين ! الأولى على الملايين .. !

ودارت حول نفسها فى حبور دورتين ، وهى تقول :

— على الملايين .. على الملايين ..!

وفى الدورة الثانية ، لمحت خروفاً مربوطا فى عمود النور ، أمام دكان الحاج إبراهيم العطار .. فكفت عن اللف حول نفسها ، ورمقته باهتمام شديد :

— أنا فى البيت . والكبش فى الحقل .. أرأيت الفيل يا خليل ؟ نعم رأيته ! وله ذيل قصير !.. ذيل الخروف قصير حقاً . وسمين ! ما أعجب الحاج إبراهيم وهو جالس بباب الدكان . يكركر فى الشيشة .. وكأن الصوت يخرج من كرشه الكبير ! وقد أسبل جفنيه كالنائم .. ويفتحهما من حين لحين . ليصلح الفحم على التمباك بالماشة... وهو يميل بجسمه الضخم ...

وصاحت البنت صفاء بلا وعى . بعد أن ظلت ترقبه برهة طويلة :

— أرأيت الفيل يا خليل ؟ نعم رأيته ...

وزمجر الحاج إبراهيم وزعق فيها :

— امشى يا بنت الأبالسة . يا قليلة الحيا ...

ولم يسعفه جسمه بمطاردتها . فاكتفى بقطعة فحم قذفها بها فى غيظ .. ووقعت الفحمة بقربها .. فتناولتها فى يدها . وانطلقت راجعة إلى السياج الحديدى . الولد صاحب البندقية اختفى .. حمل فشله إلى مكان آخر .... ولكن قطة « جيجى » لم تزل فى مكانها .. وراحت صفاء تعد السور الحديدى مرة ثانية بالمقلوب . حتى وصلت إلى واحد ... وإذا بهدى . زميلتها فى المدرسة . تصيح بها من أول الشارع :

— صفاء . صفاء .

والتفتت . ولم ترد . هدى بنت مدرسة العربى .. لم تدع فرصة تمر طوال السنة إلا وعيرتها بأمها بياعة المثلجات على باب المدرسة ... كانت تحرض عليها التلميذات ليضربنها ... وكانت إذا رأتها تلعب . تمد رجلها

لتتعثر فيها وتسقط على الأرض . ثم تصرخ هى وتولول . فتسرع إليها أمها المدرسة . . ولا تعدم من يشهد معها من التلميذات أن صفاء ضربتها وأوقعتها أرضاً . . فتنال من المدرسة ما تستحق من عقاب لاجترائها على ابنتها ...!

وتذكرت مرة ثانية « الأستاذ برغش» والطماطم التى يريدها للغداء.. وأسرعت إلى أم صالح بائعة القوطه والجرجير ... أم صالح صديقتها تعطيها أرخص من السوق .. وتعطيها أيضاً واحدة لتأكلها ... ولكن « الأستاذ برغش» قال لها : لا تأكلى الطماطم بدون غسيل ، وإلا قتلتك الجراثيم... أشياء صغيرة ... صغيرة .. لا تراها العين .. تقتل الناس ...

— خذى ياصفاء هذه الثمرة لك .. كليها يابنت !

هكذا قالت لها أم صالح ، بعد أن أعطتها كيلو الطماطم والجرجير ... وأعطتها الثمرة ورأتها تضعها فى جيب المريلة .. !

ولم ترد صفاء اكتفت بالقفز ، وهى تتطوح فى طريقها إلى البيت.. متغنية بصوت له فى أذنيها وقع أجراس الفضة :

— اغسل وجهك بالماء والصابون كل يوم ! اغسل يديك قبل الأكل وبعده ! لاتشرب من إناء شرب منه غيرك ! لاتأكل شيئاً قبل غسله جيداً! حافظ على نظافة عينيك وأسنانك ..!

وأعجبها صوتها وحفظها .. فراحت تطرى نفسها بنشيدها الأثير :

— الأولى على الملايين ! الأولى على الملايين ..!

وقابلها « الأستاذ برغش» بثورة عارمة .. صائحاً بغضب :

ـ ساعة ؟ ساعة يا صفاء ؟ . لقد تغديت .. خذى ما أحضرت .. لا أريده ! .

وصفق الباب فى وجهها . وخيط من اللعاب يتسرب من زاوية فمه من شدة الغضب ...

ونظرت صفاء إلى الباب المغلق فى عجب ...

ما كل هذه الثورة ؟! هذه المرة فاقت جميع ما قبلها .. ويغلق الباب فى وجهها ! . لقد وعدها أن يعطيها ربع جنيه عندما تنجح ! ماذا حدث ؟ ألأنها تأخرت قليلا ؟! ثم ماذا تصنع هى ؟ هى أيضاً كانت مشغولة ... أشياء كثيرة فى الطريق كان عليها أن تواجهها ... والحاج إبراهيم الذى لعن أجدادها . ورماها بقطعة الفحم .. ها هى لم تزل فى يدها ...

الآن ستضر بها أمها .. وهزت كتفيها ولكن لا يهم .! ٤٩ من ٥٠ ... الأولى على الملايين ...!

واستدارت لتنزل السلم .

السلم عريض . أبيض . ناصع البياض . غسلته أمها فى الصباح . وسياج السلم من الحديد الأسود . أسود كالفحم الذى فى يدها ... وراحت تجرب النزول بظهرها . وعيناها على الدرج الأبيض .. ابيض ناصع . بغير سوء ...

ورفعت عينها إلى الباب الذى انصفق فى وجهها .

إنه لا يعلم . لا يعلم أنها الأولى . الأولى على الملايين . صفاء أمين !

٤٩ من ٥٠ ... ولكنه سيعلم حتما .. وعندئذ ...

وفجأة انقضت على صفحة الدرج الأبيض الناصع أمامها ، وراحت تكتب بقطعة الفحم . فى قوة ومضاء :

زرع . . حصد . وزن . كتب . عرف ... إلخ ...

الدرجة تلو الدرجة . تملؤها بالحروف والأرقام .

وعند الدرجة الأخيرة . وقفت تنظر إلى صنع يدها . بالأسود فوق الأبيض .. فى إيمان واقتناع .. ثم عضت بأسنانها على طرف لسانها .. وكتبت على الدرجة الأخيرة من أولها لآخرها بحروف كبيرة : صفاء ...

وكانت تضغط على قطعة الفحم بشدة . حتى لا تقدر على محو هذه الحروف الأربعة أقدام الصاعدين والهابطين ، على السلم الأبيض الكبير .

شيء لا يصدّق

obeikandl.com

الليل كافر ! أفكار سوداء تحوم حولها .. ضربات قلبها تزداد وضوحاً .. العرق يتصبب بارداً من منبت شعرها إلى خديها .. يد تعتصرها .. كالخرقة البالية أحست نفسها ...

سافر ابنها . ابن عمرها . حبيبها البكر . هاجر كما هاجر غيره من الشباب . . كلا . ليس كغيره هو من الشباب .. أنجبته بعد أن فقدت طفلها الأول . أنجبته وهى ترتعد خوفاً عليه .. من النسمة العابرة حصنته .. عن كل من حولها حجبته .. ولو استطاعت أن تخبئه بين ضلوعها لخبأته .. ومع كل ما فعلت كان عليلا ! يزوره المرض تلو المرض ! وهى تضرع إلى الله الليل والنهار ، كيلا يجربها مرة أخرى ...

وسمع الله دعاءها . وكبر الغلام . وأنجبت غيره وغيره .. فلذة كبدها جميعاً .. ولكنه هو . هو ابن حياتها . قرة عينها . جديراً كان بكل ما أغدقت عليه من حب .. فجازاها تفوقاً فى الدراسة واستقامة فى الأخلاق وأهم من كل ذلك ، جازاها حباً وحناناً ورعاية ... ملتصق بها هو . لا يبارح البيت إلا للضرورة . مبكراً يعود ليقص عليها كل ما صادفه أثناء غيابه .... دون إخوته سره معها ..

أبعد كل ذلك ، تستطيع أن تعيش وهو بعيد عن وكرها ؟

أحست لبعده غصة دائمة فى حلقها .. آلاما مبرحة فى صدرها . قال لها الطبيب عجباً : الضغط مرتفع ! : ولم تعرف معنى الضغط

المرتفع يوماً فى حياتها ! وقال لها أيضاً : مبادئ ذيحة ! أما زوجها فقال لها : فكرى جيداً من سيقف على خدمتك حينما لا تستطيعين مبارحة الفراش ؟ أنا فى عملى ، والأولاد جميعاً فى مدارسهم وكلياتهم ..!

زوجها قال لها ذلك ! والد ابنها ! استطاع أن يتماسك ، ويسترد اتزانه ! هو الذى أحسته سينهار ! وتجلدت من أجله .. والطائرة تحلق بفلذة كبدهما أمامهما !

لو كانت تعلم متى ستراه ؟ متى ستكتحل عيناها بوجهه الصبوح .. ربما كانت الفجيعة أقل . أما وهو سينهى أشهر امتيازه فى مستشفى هناك : وبعد ذلك يلتحق بمستشفى آخر للعمل : فمسألة يطول شرحها ...

وتقلبت فى فراشها . والتقطت نفساً عميقاً : أحسته رد إليها روحها المنسحبة ، وفتحت عينيها ، وإذا شعاع من نور يتسلل عبر الستائر...

وأدارت عينيها بسرعة فيما حولها .

وابتسمت . من كان يصدق أنها ، قبل مرور عامين على سفره ، تطير هى إليه ! تطير هى إليه ، على نفقته !

بعد شهرين من سفره أنهى الامتياز . ثم عين فى مستشفى . وظل يواصل درسه بجد واجتهاد ، حتى أخذ دبلومة . ثم عين فى مستشفى آخر . واختاروه من بين خمسة ، هو الوحيد المصرى الجنسية بينهم ! ولكن العمل عمل . العمل الجيد يزكى صاحبه أينما كان . .!

وفركت عينيها ، وهى تحدق فيما حولها .

غرفة جميلة ، كالتى كانت تراها فى المجلات الأجنبية . بسيطة

الرياش والأثاث . ولكن كل قطعة فيها منتقاة بذوق سليم ، يصل إلى حد الإمتاع . . إمتاع البصر والنفس معاً ... ينشرح الصدر بهجة بروائها ...

وابتسمت . من كان يصدق أن تطير هى إليه ! إلى بيته ! إلى عشه الخاص ! ولم يمض عامان على سفره ..؟

بعد أن توالت أنباء نجاحه المطرد ، أرسل إليها صورة مع زميلة له ، مع نبذة عن حياتها وأصلها وفصلها ، يسألها رأيها فيها ..

وضربت كفًّا بكف . وبكت . وانفطر قلبها ..

ابنها . حبيبها . يتزوج بعيداً عنها ؟ وممن ؟ من فتاة أجنبية ؟ ليتها زوجته قبل سفره ، من فتاة مصرية ، لتضمن بعد ذلك أن يعودا إلى وطنهما الأم . كثيراً ما قال لها : ماما . أريد أن أتزوج ! ولكنها كانت تأخذ كلماته مأخذ الهذر . أبدا لم تفكر أنه يرغب فى الزواج بهذه السرعة ، لم يتم بعد دراسته ! كانت تضحك معه ، وتمهله ، حتى التخرج . وكان يسكت على مضض .. ولم تستطع أن تتبين ما وراء سكوته . فى أعماقه كان يتجاذبه عاملان : عامل الشباب الفائر ، وما يتطلبه من رغبات ملحة . وعامل الدين والتربية المستقيمة ، وما يتطلبانه من كبح واتزان .. وحينما طرأت على ذهنه الهجرة ، استنام العاملان ، تحت عامل ثالث : اللهفة على بناء نفسه ...

وفى البداية . كاد أن يصيبه الفشل . فهو بطبيعته داجن يعشق البيت والأسرة . وإذا به وحيد ، فى بلد غريب ، والصدر الحانى يبعد عنه أميالا وأميالا . وجو الأسرة لا وجود له ...

وامتلأت خطاباته بالشوق والشجن . وأحست هى بدنو أجلها . فهى لا تستطيع له شيئاً فى غربته . والعودة غير ممكنة . ومكثه على هذه الحال يقطع قلبها . ولم تجد غير الكلمات المشجعة ؛ وهى أولى بها منه ...

وبدأت نفسه تهدأ ؛ وبين سطور خطاباته تفوح رائحة الاطمئنان ؛ والسكينة ؛ بل والفرحة بالحياة والنجاح .

وحمدت ربها ودفق الحياة يعود إلى أوصالها المتعبة مع كل كلمة حلوة تصلها منه . مع كل نجاح يحصل عليه . مع كل صورة يطل عليها منها ...

ثم .. ثم خطاب رقيق يسألها رأيها فيمن اختارها شريكة لحياته !

بهذه السرعة ؟ تأن يا بنى . لا تتعجل . أنت لم تزل صغير السن . لم تكون نفسك بعد !

كانت هذه هى كلماتها له . واشترك معها والده . خوفاً عليه . خوفاً على الطفل المغترب . خوفاً على الشاب الحالم الذى لم يجرب الحياة بعد ...

وضحك الطفل فى أعماقه ! أبداً لم تعتبره أمه رجلا ! هو هو طفلها الصغير . ضعيف الصحة . المنزعجة عليه دائماً ...

ـ لا تخافى يا أماه . لقد عرفت كيف أختار . ممتازة هى من جميع الوجوه . وإذا كانت تكبرنى قليلا فهذه مزية تضاف إلى مزاياها . لا نقيصة تحسب عليها ! .

ولم تستطع أن تحضر الخطبة ، ولا الزواج ! لانشغالها بمهام فوق طاقتها . والآن . وبعد أشهر من الزواج .. ها هى فى بيته !

وابتسمت . من كان يصدق أن تنتقل من بلدتها ، وإلى أين ؟ إلى لندن !

بالالهفة كلها قابلها فى المطار . لم تستطع أن تتحكم فى عواطفها وهى تحتضنه إلى صدرها ، ودموعها تهطل على خديها فى دفقات متوالية .. والعروس ، واقفة تنظر وتبتسم . ثم تحتضن حماتها : ولكن فى توجس .. وابتسمت . وفركت عينيها .

اختلاف بين فى طريقة الحياة . واختلاف أكثر فى نوع الأطعمة . ومذاقها . ولكن أكثر ما استرعى نظرها حالة ابنها ! حركاته ! لفتاته ! طريقة كلامه ! كل شىء فيه تغير . حتى جسمه ! وجهه ! أصبح نحيفاً . تغيرت ملامحه ! اكتست بالجد ! زالت عنها طراوة الطفولة .. أصبح إلى الرجولة أقرب منه إلى الطفولة التى عهدتها فى قسمات وجهه !

أإلى هذا الحد استطاعت هذه الشهور أن تغير منه ؟!

أيفرحها هذا أم يحزنها ؟

سؤال راح يلح على ذهنها . وهى مستلقية تستمتع بدفء الفراش ، وإذا بالباب يفتح ببطء ويطل منه رأس ابنها .

وهمت جالسة ، فدخل عليها هاشاً .

ودق قلبها بعنف وهى تستقبله بين ذراعيها وتشده إلى صدرها .

وسقط عشرون شهرا من بينهما . وإذا الطفل الحبيب يعود إلى أحضان أمه ، بعينيه البريئتين ، بصوته المنغم الهادئ ...

وأبعدته عنها قليلا ، وراحت تشبع عينيها من وجهه وشعره ، وعينيه ، ورقبته ، وهو يبتسم فى صمت . وفجأة سألها دون أن يبرح حضنها :

— ما رأيك فى زوجتى ؟ .

ووجدت نفسها تجيبه بسرعة :

ـ لطيفة . ربنا يهنيك ...

ـ أليست ممتازة يا أماه ؟

وأحكمت عليه ذراعيها وهى تقول :

ـ ممتازة يا بنى ما دامت تحبك ، وأنت سعيد معها ...

وعادت تقبله ، فبعد بضع ساعات ستتركه لتعود من جديد إلى الحرمان منه . فقد استقر نهائياً فى هذا البلد . أصبحت له فيه جذور ...

وضغطت بوجهها على وجهه ، وهى تكاد تدخله داخل صدرها ؛ وفجأة ، سمع صوت عروسه تناديه . فانتفض من بين ذراعيها ، وطفر إلى باب الحجرة ، كعصفور يهم بالتحليق .!

ونظرت من خلفه ، وقد أحست خواء ذراعيها اللتين كانتا تطوقانه ...

وابتسمت فى شجن :

ـ من كان يصدق ... ؟

obeikandl.com

العُرى

obeikandl.com

كل شيء في الحجرة الواسعة حالك السواد يلفه الصمت... لاتقطعه حتى ولا أنفاس الصغيرة النائمة ... فالصغيرة النائمة ليست نائمة ، بل وليست تحت الأغطية الثقيلة . التي سواها أبوها حول جسدها الرهيف منذ لحظات . ثم غادرها الليلة — على غير العادة — في لهوجة ... وقد خيل إليها . أخيل إليها حقاً ؟ ليست هذه هي الكلمة الصحيحة . بل إنها في الواقع كانت « تعرف» في أعماقها أنه يتحاشى التقاء عينيه بعينيها ، وهو يقبل جبينها ، كما يفعل كل ليلة منذ ماتت المرحومة ...

لهوجة خفيفة جداً في حركات أصابعه .. ورجفة في أجفانه ، وزاويتي أنفه .. رجفة صغيرة جداً أيضاً .. ولكنهما كافيتان كي تدرك سناء أنهما موجودتان ... وأن داخل « بابا» شيئاً في هذه الليلة يختلف اختلافاً حاسماً عن كل ليلة ...

هناك عمتها « فكرية» بالطبع . فقد حلت منذ عصر اليوم ضيفة عليهما في البيت، ومكثت للعشاء. وعندما استعجل بنوها عودتها بالتليفون، استمهلتهم بصوت تعمدت أن تسمعه سناء بوضوح .. — وصوت عمتي « فكرية» يشبهها شخصياً تمام الشبه : فهو مثلها قصير بدين نوعاً ، ورنان مثل نظرات عينيها الواسعتين كعيني بقرة — تعمدت أن تسمعها سناء تقول لأولادها ، في التليفون ، بهذا الصوت الرنان :

— سناء أوحشتني كثيراً .. وجدتها كبرت وصارت عروساً جميلة ..

عاقلة تفرح القلب ... سأمكث معها قليلا .. أريد أن أمتع نفسى بها ...

ورمت سناء بنظرة غزل ... وانكمشت الصغيرة بنت السنوات العشر فى نفسها . لا تواضعاً . بالعكس : لم يكن للمسألة أى صلة بالتواضع بل كبرياء ! أحست فى قرارة نفسها أن « عمتى فكرية» تستغفلها بهذا التملق : أو التودد : غير المعهود . وقد تعودت . كلما تودد إليها أحد ؛ أو تملقها ... وأطرى عقلها على الخصوص .. أنه فى سبيله إلى طلب التضحية بشىء ما من جانبها . شىء فى مصلحة من يتملقها ، ولا تتبين هى أى مصلحة فيه على الإطلاق لنفسها !

عندما « تشبط» مثلا فى أبيها ، يتذكر أبوها عقلها ويثنى عليه : وعندما تطالب بالذهاب مع بنات المدرسة فى رحلة .. يحدث نفس الشىء. وعندما تكثر من اللعب بكرتها ، أو تحاول لعب « الأولى» فى حجرات البيت ، تتذكر « داده كوثر» فجأة مناقب سناء العقلية ، وتنسى بسرعة كل ما كانت ترميها به ، قبل لحظة واحدة ؛ من صفات لا صلة لها بالعقل والرزانة . فلا بد أن يصير العقل مرادفاً ، فى ذهنها ، للمتاعب والقيود وتجرع الغصص .. ومن هنا نشأت لديها حاسة شبه غريزية : متى سمعت سيرة عقلها ورزانتها وحكمتها ، عضت بأسنانها على طرف لسانها ، كما يعض الحصان على اللجام استعداداً للحران ، وغضت بصرها لتخفى مشاعر البغض والتحفز للمقاومة . وأرهفت أذنيها وأيقظت عقلها كله ، لتكتشف موضع « البلفة» أو « الشرك» الذى ينصبونه لها ، باسم الحكمة والعقل ..!

ولم يطل انتظارها كما توقعت... فعمتها فكرية التى تدعى أنها لم تبق إلا لإرواء ظمئها ووحشتها منها . هى بنفسها — التى بعد أن أغرقتها فى ربع ساعة من التدليل السخيف البراق . البراق مثل بهرجة ثوبها وحليها و« فورمة » شعرها وكحل عينيها .. تبرعت باكتشاف النعاس فى عينى سناء . قبل موعد نومها المعتاد بساعة ..! وعبثاً أنكرت سناء ذلك . فقد قاطعتها عمتها :

— البنت — يا حبة عينى ! — نفسها تجالسنى... لا تخافى يا روحى.. سآتى مرات أخرى كثيرة جداً . حتى تشبعى منى ....!

وتوقعت . بعد أن انتهى مبرر بقائها . أن تستأذن هذه العمة فى الرواح إلى أولادها . ولكن حدث العكس . بقيت العمة وتولى الأب والدادة « كروتة » سناء إلى حجرة النوم ! . .

وأغمضت الصغيرة عينيها بأسرع من المعتاد ، بعد أن تثاءبت مرتين . أغمضت عينيها عندما رأت نظرات أبيها . وسط « زيطة » عمتها وصخبها ، تتحاشى الالتقاء بنظراتها . وكأنه مذنب ضبط متلبساً . فهذا الأب الطيب لم يتعود الغش فى أى لعبة يلعبها معها . ولا فى أى كلمة .. ولا بد أن يتندى جسمه بعرق الخجل ، إذا وجد نفسه متورطاً فى عملية خداع أو تهريب أو تدليس . عملية تهريبها هى إلى النوم . وعملية التدليس على عمتها فكرية ...

ولكن ما هى المسألة بالضبط ؟

هذا ما تناومت من أجله لتستل ريبتهما .. ومن أجل الوصول إلى

معرفته وقفت فى الظلام الحالك . الذى يطمس كل شىء فى غرفتها . حافية القدمين . خلف الباب مباشرة . وعينها على ثقب المفتاح ، كأنها فوهة مدفع ! وسمعها المرهف تركزت فيه كل أعصابها . فلم تتنبه لرجفة البرد الخفيفة . التى تصعد من قدميها . إلا بعد بضع دقائق . فخفت إلى موضع خفيها تحت السرير . وعادت لتحتل مكانها مرة أخرى . خلف نافذة الأسرار .

شىء ما يدور هناك على الأريكة الكبيرة ، تحت صورة أمها ... حيث جلست عمتها فكرية إلى جانب أبيها . أى مفارقة ضخمة بين السيدة البراقة الصاخبة الألوان والحركات والزينة . وبين الصورة المعلقة فوق رأسها ، لامرأة فيها كل شىء من الفراشة : رقتها . رهافتها . رفيفها الساكن . نظراتها البعيدة الحزينة ، كأنها تتحسر على ضوء لم يكتب لها أن تصل إليه أبداً ...

عمتها فكرية تتكئ على كتف أبيها ، كأنها تريد أن تبلغه . إنها لا تكاد تكف عن بلغ كل إنسان. وكل كلمة تقولها وراءها فخ .هكذا تحس سناء . ولكن ما الذى تريد أن تخدع به بابا كى تحصل عليه ؟

إن صوتها ، على غير العادة ، همس أو كالهمس ! والانفعالات التى على وجه أبيها لا تستطيع أن تفهم منها شيئاً . بابا غالباً رجل متردد . نصفه يريد ونصفه لا يريد . حتى عندما تتحدث سناء عن رغبتها فى نزهة . نصفه يريد تنفيذ رغبتها ، ونصفه الآخر يحبذ البقاء فى البيت . وعندما تقترح دادة « دقية تورلى» أو بامية أو شركسية ... لا يبدو تحمسه

إلا نصف تحمس . أما النصف الآخر . فربما كان يحوم حول ملوخية بالأرانب ... فهذا الذى تطالعه على صفحة وجهه . من أمارات التردد الشديد . لايدلها على شىء فيما يختص بالموضوع الخطير الذى تلمع به عينا عمتها فكرية . وتدل حركاتها على لهفتها العميقة على استدراج أبيها إليه .

وسمعت من بعيد رنين جرس الباب .

وكأنما وثب فجأة لولب داخل جسم عمتى فكرية ، فقفزت واقفة ، ولمعت عينا البقرة فى وجهها المستدير كالكرة .

كل هذا لم يدهشها تماماً . فعمتى فكرية ما أكثر ما يداخلها من اللوالب التى تجعلها تقفز لسبب ولغير سبب . ولكن الذى أذهلها حقاً تلك الحركات العصبية ، التى صدرت — على غير المألوف — من والدها : يداه ارتفعتا بسرعة إلى رباط عنقه يسويه ، ثم إلى شعره يرجله برفق ، بعد نظرة خاطفة إلى مرآة معلقة فى إطار مذهب على يمين صورة «المرحومة» وملامحه اكتست حمرة خفيفة ، كأنه « أبلة» اعتماد مدرسة الفصل عندما يدخل عليها المفتش ... وهبط نظره إلى حذائه ، وتوقعت أن تراه يلمعه فى بنطلونه . ولكن عمتى فكرية جذبته من يده بسرعة ، وجرته وراءها إلى الصالة ، وصوتها « الحيانى » يجلجل :

— أهلا وسهلا . أهلا . بأ . بأ . بأ . . بأ . .

أربع قبلات من النوع الذى يطرقع كصواريخ « حرب الحبش » التى يلعب بها الأولاد فى العيد ، وينهاها عنها أبوها . .

ودخلت الصالون فى المقدمة سيدة طويلة ، ملفوفة ، ذات شعر طويل ، أثيث ، أسود ، لامع ، مرسل على جانبى وجهها الأبيض الناصع . وخطوتها الواثقة تقتحم وراء نظرتها أرجاء القاعة ، وتكاد تحيط بكل شىء فى لمحة واحدة من لمحات الصقر الذى تعود التحليق فى جميع الأجواء . .

ومن ورائها ، دخل رجل طويل ، عريض الكتفين ، له شارب أسود منسق ، كأنه مرسوم بقلم فحم ! ووجهه ناعم جامد الملامح ، كأنما صنعه نجار ماهر وتولى طلاءه ببراعة . وركب له عينين زجاجيتين ، لا تكادان تتحركان . لمعانهما المستمر لا تتغير ظلاله ، مثل عيون الأسماك. إخ ! شد ما تكره السمك وسيرته! ورائحته على الخصوص ! إنها تكاد تقسم أن لهذا الرجل رائحة كرائحة السمك . . . !

وفى الخلف دخلت عمتى فكرية ، وهى تلكز « بابا » بكوعها فى تواطؤ . . . وفمها مستمر فى الترحيب بالزائرين اللذين جلسا . . . وتسللت إلى أنف سناء رائحة عطر قوى . كلا . ليس قويا تماما .. نفاذ فقط. نفاذ فى رفق كنسمات الفجر بعد ليلة حارة . . .

ورفعت الزائرة بصرها تتأمل النجفة الكريستال . . وبسرعة قالت عمتى فكرية فى لهجة التنبيه ، كأنها تحذرها من الوقوع فى خطأ :

— صنع الخارج ! اشتراها حمدى من فينيسيا . . .

وابتسمت الزائرة فى صمت . كأنها تقول «أنا لا أعارض». ولم تدع عمتى فكرية حبل الكلام يفلت من يدها ويقع على الأرض ، فاستطردت بسرعة :

— الحقيقة حمدى طول عمره مغرم بالتحف الأنيقة الغالية .. والتماثيل الصغيرة . والصينى ! سترين بعينيك كيف تفنن فى انتقائه رحلاته الكثيرة لحضور المؤتمرات فى أوربا . كان يخصصها لشراء أنواع التحف والصينى . وأدوات المائدة .. الحقيقة البيت لاينقصه شىء كما قلت لك ....

ودخلت الخادمة بأكواب العصير . وانتهزت عمتى فكرية الفرصة وقفزت حتى وقفت بين الزائرة وبين النجفة . ورفعت كأسها فى النور وهتفت بها :

— انظرى ! تألق وشفافية لا مثيل لهما إلا فى مصنوعات بوهيميا الأصلية !

وابتسمت الزائرة ونظرت وأبدت إعجابها بصوت خافت ... وعادت عمتى فكرية إلى مكانها على الأريكة بجوار بابا .. ورمقته بنظرة استحثاث ، كأنها « زغد» فى جنبه ، كى يساندها فى الكلام ...

— حمدى الحقيقة ذوقه ممتاز ... وغرامه بالجمال والرقة يفوق الوصف . ولا يضن بشىء أبدا فى سبيل اقتناء تحفة تروقه ...

وكأنما كان ينتظر بابا هذه الإشارة . فاتجهت عيناه إلى الزائرة فى إعجاب صامت ، ولكنه واضح . وشبكت المرأة عينيها بعينيه ، كأنما تريد أن تنومه مغناطيسياً ، وهى ترشف بقية كوب العصير ...

لا بد أن ثقب الباب ينفذ منه تيار هواء . وإلا فما سبب هذه الرجفة التى أحسنها سناء وهى واقفة هناك ، حتى لقد أوشكت أن تعطس ،

وبصعوبة كتمت العطسة حتى انصرفت لحال سبيلها ، وعادت ترهف السمع والبصر .

وكأنما تفجرت ينابيع سرور زائط فى داخل عمتى فكرية فهتفت تبارك وتحيي النظرات التى تلاقت :

ـ الحقيقة يا حمدى « فوزية» تحفة ولا كل التحف . حظك من السما ...

وتهلل وجه « بابا» . وافتر وجه الرجل الخشبى عن ابتسامة زادت خطى شاربه المرسومين طولا وانفراجاً ... ثم نظر فى ساعته . كأن الزيارة محسوبة الزمن كفترات الامتحان . . . والتقطت عمتى فكرية هذه الإشارة ، فاقترحت أن يطوفوا بحجرات البيت :

ـ الحقيقة ، كما قلت لك يا فوزية : البيت كله آية ... استعداده كامل . لا ينقصه شىء .. ما عدا النجفة الكبرى طبعاً .. زينة الكل ..

ولم يحمر وجه بابا هذه المرة كاحمرار وجه « أبلة اعتماد» أمام المفتش . كان احمرارا من نوع آخر . ليس أشد فقط ، ولكنه مصبوغ بتودد كتودد « بيجو» ، عندما يتوقع على المائدة قطعة ممتازة من عظم الحمام الذى يحبه ، ويظل يهز ذيله .. وحانت منها التفاتة إلى « بابا» ، كأنها تبحث خلفه عن شىء يهتز ....

وصاح صوت عمتى فكرية ، وقد وقف الجميع استعداداً للجولة التفتيشية ، وذراعها الممدودة تشير فى حركة دائرية إلى المقاعد ، واللوحات الزيتية ، والمرايا المذهبة فوق الجدران :

– هذا هو الصالون طبعاً . صنع فرنسا ... اشتراه حمدى حين كان فى السلك السياسى .. وكذلك قاعة المائدة وحجرة النوم ...

وطاف نظر « فوزية» متمهلا هذه المرة ووقف عند اللوحة الكبيرة التى تمثل « المرحومة » فوق الأريكة فى صدر الصالون ، وتأملتها جيدا . ثم التفتت إلى عمتى فكرية فى تساؤل صامت .. وردت عليها عمتى فكرية بإشارة من ذقنها المدبب كأنها تقول لها « نعم . إنها هى» ، ثم استطردت تقول بسرعة :

– ستتم كل التغييرات المناسبة طبعاً فى حينها :.

والتفتت إلى بابا ، وقالت بنظرة جانبية حازمة ، كأنها تزغده ليتكلم :

– أليس كذلك يا حمدى ؟

وانتفض وقال كالملسوع ، فى لهفة وحزم لم تعهده فى طبيعته المترددة من قبل :

– طبعاً طبعاً ...

أتش !

العطسة أفلتت . ووجدت سناء جميع الأنظار تتجه نحو الباب ، وأسرعت عمتى فكرية – كيف تتحرك بهذه الخفة كلها ؟ – وفتحت الباب .. ورأت سناء كل الأضواء والأعين تنصب عليها ...

لم تر أحداً أمامها غير أبيها ..

وقفت تنظر إليه فى ذهول ...

وانكمش حمدى فى موضعه كأنه أحس فجأة بعريه تحت نظراتها ،

وعيناها تكادان تستغرقان وجهها الصغير فى قميص نومها ؛ كأنها جنية خرجت من عالم الأقزام ، فى كتاب حكايات قديم ...

وزاد إحساسه بالعرى : حين مدت فكرية يدها بحزم ، لتجر الصغيرة وهى تنبهرها ؛ والصغيرة لا تلتفت إليها ولا تحول عينيها عنه كأنها تراه لأول مرة .. لا بد أن عريه مذهل لعينيها ...

وبحزم انبعث صوته حاداً جازماً :

ـ فكرية ! دعيها !

وبحزم جازم تقدم نحوها ، وخطواته تصك الأرض على غير عادته ، ومن غير أن يلتفت وراءه ليعتذر ، انحنى وحملها بين ذراعيه ، وأغلق الباب خلفه ، ومضى بها إلى سريرها ...

ـ ماذا أيقظك ؟ نامى يا حبيبتى ..

وفى بقية من الذعر ظلت بعد أن استعاد صورته فى ناظريها ، قالت له :

ـ لا أستطيع أن أنام ... لا تتركنى يا بابا ..

وبحنان شديد احتواها فى أحضانه ، وهو يقول بذلك الحزم الجديد الذى لم تعهده :

ـ لن أتركك يا روحى ...

ومن غير أن يفكر ـ هذا الحريص على الترتيب والنظام ـ اضطجع بجوارها دون أن يخلع حذاءه من قدمه ... ووضع رأسها على كتفه ::::

obeikandl.com

رجفة إصرار

obeikandl.com

كان أول ما تعلمته من دروس الحياة أننى امرأة . . . وأن المرأة غير الرجل . . ! كنت أرى أبوىّ يحبان أخى حبًّا مغايراً لحبهما لى . . . ومع أنه كان أصغر منى ، إلا أن اهتمامهما به ، وحدبهما عليه ، كان من صنف غير الذى كنت أحظى به . . فهو « رجل » ولذا فله وزنه . . أما أنا فمجرد : حيوان من حيوانات الزينة ! حبهما لى سمح ، رقيق ، فى غير كبير عناية ، ولا تقدير . . ! لا أنكر أنهما كانا يحبانى ولكن حبهما كان مثقلا بالنواهى ، والضغط ، والحرمان من كل ما يتاح لأخى ، حتى ضقت يومًا بهذه المعاملة . فحسمتها بموقف من أمى ، فما وجدت منها إلا ردًّا نزل على كالطعنة المصمية . . . وحفر فى نفسى ندبة لازمتنى مدى الحياة !

ــ لا تنتظرى من الناس أن يعاملوك كرجل . . . وخير لك من الآن أن تواجهى الحياة بنفس امرأة !

ما معنى كلماتها ؟ هل أحنى الرأس وأعيش ذليلة ؟ إمعة ؟ أقضى الحياة تحت كنف رجل يسيرنى حسب هواه ؟ أبى أولا . . ثم زوجى ؟ !

هيهات . . !

ومنذ ذلك الوقت ــ وكنت فى العاشرة ــ انطويت على نفسى ، وأسدلت ستاراً كثيفًا بينى وبين أبى وأمى . . وآليت أن أتخذ موقفًا

من الحياة . وهكذا رحت أختزن أسرارى . . وآمالى . . وأوجاعى وأحزانى ؛ فى ذلك المستودع المظلم من أعماقى ، ولا أبوح به لإنسان . .

ولم يكن « حازم » . جارى . إلا طفلا فى مثل سنى أو يكبرنى بشهور . . ومنذ صغرنا الباكر . كنا نمرح معًا وسط « شلة » من الأطفال . وما كنت أجده من الكبار كان على صورة أبشع بين الصغار . . فأثناء اللعب ، كان الصبية هم المسيطرين الآمرين ، فى حين كانت الفتيات خانعات مستسلمات . . إلا أنا ! فما كنت أسمح لأى طفل أن يملى على شروطه ، بل كنت أقف منه موقف الند فى عناد وإصرار لا يلين . . وكم من شجار بينى وبين حازم ، كان يصل أحيانًا إلى التراشق بالألفاظ ، وتقع القطيعة بيننا أياماً وأياما ، ثم يحدث الصلح فجأة ، بدون إشارة إلى الماضى ، وكأنما لم تكن قطيعة . .

وترعرعنا معًا ؛ حتى بلغنا أشدنا . . شىء كان يربطنا ، فننأى بنفسينا عن ألعاب « الصغار » — هكذا كنا ننعت أفراد الشلة ، ونستصغر ما فى عقولهم من سذاجة — وكان يصف لى ما فى « القدس » من جمال ، وما كان يحدث من أفراح فى مواسم الحج والأعياد . . والمسجد الأقصى ، وما هو عليه من بديع المعمار ، وكيف بنى . . وكيف أنه قطعة فنية رائعة . . وكذلك الكنائس وما تحتويها من جمال يبهر الناظر ، ومهد السيد المسيح . . والعذراء ، والمروج الفيحاء . . والربى التى يحف بها السحر . .

كان يحدثنى بشغف وتحمس ، كأنما ولد وعاش بين مراتعها . . واستنشق هواءها . . وملأ عينيه من حسنها . . وكنت أضع يدى على يده . وهو يقسم أن يحررها . . وأنا أقرر فى سرى الوقوف بجانبه ، دون أن أفصح عن نيتى ، خوفاً من زراية تدمى موضع الجرح الذى أخفيه عن الأعين . .

كنا جيل النكبة التى حدثت عقب حرب ١٩٤٨ بين مصر وإسرائيل . وكان حازم ابن إحدى الأسر الكثيرة التى لجأت إلى مصر ، واتخذت منها وطناً ثانيًا . . ولد بعد النكبة بثلاثة أشهر . . نزحت أمه وهو فى أحشائها . مع بعض أفراد أسرتها ، وقد استشهد زوجها . والد طفلها الأول والوحيد . فى تلك المجزرة التى حدثت فى ذلك الوقت من عام ١٩٤٨ . . .

وشب حازم ، وفى قلبه ضغن مستعر على تلك الشرذمة من شذاذ الآفاق ، مغتصبى وطنه الحبيب . . ضغن تزيده الأيام ضراما ؛ لكثرة ما أرضعته أمه درس النكبة مع لبنها طفلا . . ولقنته له يافعا . وما كان ليجد إلا أنا . . الفتاة الجسور . . الفتاة المتمردة . . ليصب فى أذنى ما تلقنه عن أمه ، فنندمج معاً فى تدبير خطط ومشاريع لمستقبل ، كل ما فيه يوحى بالتأثر . واسترجاع الأرض السليبة لأبنائها : أحلام أطفال !

شد ما كان يؤمن بها . . فما كان حازم إلا رجلا فى إهاب

يافع . . وما كانت ثورته لمصير بلده . أقل من ثورة الرجال ذوى اليأس . . .

وفرقت الأيام بيننا . . سار كل منا فى طريقه . . وانقطعت أخبار حازم عنى .. وسرت فى طريق العلم . برغم معارضة أمى . ورفضت بإصرار الزواج من رجل يعتبر كسباً لأى فتاة . . سرت أحفر لنفسى طريقاً محفوفاً بالأشواك . . مليئاً بالمنغصات . . حتى تخرجت فى كلية التمريض . .

ما أسرع ما تنقضى السنون . ! وما أروع أن يحب الإنسان عمله ويفنى فيه . . والحق أن التمريض لم يكن لى مجرد مهنة . . فقد استقطب حياتى كلها . . .

ومضت الشهور . وقد استغرقنى العمل ، حتى بت أعيش فى اللحظة ، دون ما تفكير فيما مضى ، وما سيكون . .

ولكن أيامى لم تكن أيام هدوء . . فالجو الذى ولدت وعشت فيه . جو حروب . . جو مشحون بالاستعدادات لحرب مرتقبة : فقد تخرجت فى أعقاب النكسة . التى حاقت بنا على يد شذاذ اجتمعت لهم كل عناصر التفوق ، من مساعدات جوية ، وبرية ، وبحرية ، تمدهم بها أقوى وأكبر دول الاستعمار . .

وهكذا تحول إصرارنا على هزيمتهم إلى استماتة . . .

يا لها من سنوات تلك التى شببت فيها عن الطوق ! .

لقد أصبح للفتاة شأن أى شأن . . صارت وزيرة . ورئيسة

هيئة ، وعضواً فى مجلس الأمة . وكل مكسب كانت تحصل عليه . يفتح أمامى أفقًا حافلا بالأعمال : كنت أتطلع إليه طفلة . وأصبو إليه صبية . . وأتنسمه يافعة . . بل إن التحاق الفتاة بالمقاومة . وتدريبها على أعمال الحروب . جعل قلبى يقفز بين جنبىّ . أملا فى يوم تقف فيه الفتاة بجانب الفتى . فى ميدان القتال . . .

ولم أتوان عن انتهاز أول فرصة . فكنت من أوائل الفتيات اللواتى التحقن بمركز للتدريب على حمل السلاح . . .

كيف أصف مشاعرى ؟ أكذب إن قلت إن خبر نعى أمى كان أقسى على نفسى من يوم الهزيمة . ! !

وانضممت إلى صفوف تشكيل للمقاومة الفلسطينية . . ورحلت إلى هناك . حاملة سلاحى وحياتى على كتفى . ممرضة ومقاتلة بين المجاهدين البواسل .

جرحت مرات . . وكدت أقع أسيرة مرات . . ولم يكن يزيدنى هذا إلا إمعاناً فى بذل روحى . فى سبيل إنقاذ جريح من براثن الموت . .

خضت المعارك ، جنبًا إلى جنب مع جيش التحرير . !

وشب حريق فى الجزء الشرقى من المسجد الأقصى ! !

بلغنا النبأ ، ونحن نستعد لخوض معركة حشدنا لها عشرة من الرجال وفتاتين ، كنت إحداهما . . كنا من الحماسة بحيث عمرت قلوبنا بالإيمان بالنصر الأكيد . . . ولم ينطق أحدنا بكلمة . بل رحنا

تتراشق النظرات . كطلقات المدافع . . وكل منا يتأجج صدره بنار الغضب المكظوم . . .

وظللنا الليل كله نعد العدة . . وقبل أن ينبلج نور الفجر ، خرجنا ننشد الثأر . . وتفرقنا كما كانت الخطة ، حتى لا يكتشف أمرنا . . واندفعنا كل إلى غايته المنشودة . .

كانت العتمة تغلف كل ما حولى ، وأنا أسير بخطوات حذرة نحو الهدف . وفجأة . . كأنما انشقت الأرض عن بعض جنود العدو ، يسرعون فى الجرى نحوى .

وشل تفكيرى . هو الموت إذن ! وفى كسر من الثانية انحنيت ، وقلبى يدق دقًا عنيفًا . ويدى تهتز كورقة فى مهب الريح . وتناولت قنبلة يدوية وقذفتها على أعدائى . ومن خلال التراب الثائر عقب دوى الانفجار ، لمحت أشباحًا تسقط ، وأنا أجرى بأقصى ما أسعفتنى به قدماى . ثم ارتميت بين الأحراش بعيداً عن الخطر . .

وانتبهت على صوت بجانبى . فإذا بى ملقاة على مقربة من شخص يئن أنينًا خافتًا ! كلا ! لم يكن من الأعداء . . ولم يكن أيضًا من جماعتنا . . كان بكتفه جرح ينزف من خلال ثقب فى ملابسه . . وكان فاقد الوعى .

وحملته على كتفى وخضت النهر — أشبه بالجدول الصغير هو — إلى الضفة الأخرى .

وما إن وضعته فى أول معقل سرى لنا ، حتى تحولت إلى ممرضة

لا هم لها إلا إنقاذ جريح على وشك الموت . . وأسرعت أنضو عنه ثيابه . وأغسل جرحه . وأضمده . وألفه . وما إن انتهيت . حتى فتح عينيه فى إفاقة بطيئة . .

ونظر كل منا إلى الآخر . كلا ! ليس هو . . إنه يشبهه حقًا . ولكن الآخر له شعر أصفر غزير . . غزير جدًا . حتى إنى كنت أحسده عليه فى صغرنا . وبشرة بيضاء ناصعة . . أما هذا فأصلع الرأس . . أسمر المحيا . .

وطرفت عيناه . ثم أغمضهما . ثم عاد يفتحهما مرة ثانية . وهو يرمقنى بشدة وعجب . . وفتح فمه ليقول شيئًا . ثم أطبق شفتيه . وكأنما راح فى غيبوبة مرة ثانية . .

وخشيت أن يكون ما نزفه من دم أثر على قلبه . ورحت أدلك يديه . وأتحسس جبينه ، وأضع أذنى على قلبه . أتسمع نبضاته . .

كلا ! إن بنيانه من النوع الذى يقاوم بلا شك مثل هذا الجرح .

وأحضرت له شرابا . ورفعت رأسه إلى صدرى . وقربته من شفتيه . وفتح عينيه مرة أخرى . وقبل أن يرشف جرعة من الشراب . قال وعيناه الكليلتان تتفحصانى فى تلهف :

— منى ؟

وأحسست بقلبى تشتد ضرباته ، وأنا أجيبه غير مصدقة :

— حازم ؟

وفى تلك اللحظة اندفع إلى المعقل بقية الجماعة يحملون أحدهم جريحًا . .

وتركت حازم . لأقوم بواجبى نحو هذا الجريح . . وكان الجميع يتكلمون . فى نفس واحد . عما أحرزوه من نصر . .

وانتهيت من عملى . . وقبل أن أرفع رأسى وجدت يدًا تضغط على يدى . وصوتًا هامسًا يقسم :

— سنحررها . . أتذكرين ؟

ودون أن ألتفت . ضغطت على اليد بحماسة وتحركت شفتاى هامستين فى رجفة إصرار :

— نعم سنحررها . .

قلتها هذه المرة . دون أن يعتريني الخوف من زراية تدمى موضع جرح قديم . لم يعد له وجود فى أعماقى . .

obeikandl.com

obeikandl.com

النفير

obeikandl.com

فتحت عينيها الصغيرتين السوداوين اللامعتين . وسط وجه كالشهد المصطفى : تنظر فيما حولها غير مصدقة . . فالحجرة — على سعتها — مليئة بمن كانت تقوم على خدمتهم بلا وناء . . الصغير منهم قبل الكبير . . لا تكل . . وإذا أغضت . أو تباطأت . . يجب دائمًا . في ومهما كانت الأحوال . أن تلبى بمجرد النداء عليها . . وإلا تكاثرت عليها النعوت . . .

هكذا درجت جميلة . منذ أن وطئت قدمها هذا البيت العتيد . . هذا البيت الذى تقوم فيه بخدمة مزدوجة . ومعها اثنان من الرجال الأشداء . . بين الغرف وتنظيفها . وبين ملازمة الشابة الجميلة « إحسان » . يانعة الوجه . التى امتحنها القدر فى ساقيها . بقدر ما أغدق على ملامحها من أناقة . . . وعلى لسانها من ذلاقة . . وعلى ذهنها من توقد . . .

وتفرست جميلة فى الوجوه من حولها : ها هو سيدها . فارع الطول . سمح المحيا . بادى الإشراق . . . يقترب وفى يده علبة مليئة بالبسكويت ! يقدمها إليها : وهى جالسة فى الصدارة ! . فى ثوب أحمر فاقع . . ! فتمد يدها كالمنومة لتأخذ قطعة : ترفعها إلى فمها . وتأكل كأوجه سيدة فى الزائرات — لولا أن يدها — تختلف عن أيديهن الناعمة — حمراء متورمة من كثرة دعك البلاط . . .

سيدها هذا الذى يرتجف الكل منه . . . يقف على خدمتها ! !

من كان يظن أن الست « فتكات » ، قريبة العائلة المقربة — تجلس على المقعد بجانبها . وتتبسط معها فى حديث ذى شجون ! ! هذه السيدة التى تأنف من لمس أى شىء . . !

من كان يظن أن سيدتها المترفعة تقدم لها بيدها الشربات . . . الشربات الذى عصرته بيدها ، وعلى نفقتها . . . وتتحفها بكلمة مزاح ومباسطة . . ما تمنت فى حياتها قدر أن تسمعها من فمها العذب . . !

والسيدة الكبيرة ، ربة البيت ، صاحبة المقام الرفيع ، التى ينحنى الكبير قبل الصغير ليقبل يدها احترامًا وإعزازاً ، لمكانتها المرموقة فى العائلة كلها . . . هذه السيدة تنظر إليها فى حنان ، حنان كالذى تراه فى عينيها دائمًا ، كلما تقدم فيها حفيد من أحفادها . . .

وعلى الأريكة الكبيرة ، كانت تجلس سيدتها « إحسان » فى صمت ، واضعة يدها فوق وسادة على ركبتيها ، وإحدى يديها تسند بها وجهها كوجوه القديسين . . . وفى عينيها حزن دفين تموهه بالابتسام ! تنظر إليها من طرف خفى ، دون أن تنطق بكلمة . . .

وعلى المقاعد حولها رجال ونساء من أقارب العائلة والجيران ، الكل جاء للمشاركة فى الفرح بها ! ! بها هى ! !

ومسحت وجهها بيدها ، مسحته بعنف ، من منابت شعرها حتى ذقنها . . . وبطرف عينها نظرت إلى جوارها على الأريكة ، فلمحته

يجلس فى انكماش . واضعًا يديه بين فخذيه ؛ ورأسه منحن فوق صدره . وعيناه إلى الأرض . .

هذا الشاب الحيّ الخجول . ساعى البريد . أفندى ملء ثيابه . معه الإعدادية وشرفك ! ! اختارته هى — نوارة الحتة — كما كان يلقبها جدعان الحى — اختارته من بين عشرات الشبان : الكوجى . والبواب . والفران . والسفرجى . والطباخ . الكل يسيل لعابهم عليها ، كلما أهلت بقوامها الفارع ، فلا تعيرهم التفاتا ، بعد أن أعطت قلبها لصاحب البدلة الصفراء . . . وتعاهدا على الزواج . . .

ولكن قابلتهما العقبات . فإذا كان هو يتيما — مقطوعا من شجرة — فلا أقل من أن يكون لها أهل ، يطلبها منهم رسميًا . هكذا أراد حتى لا يعرض نفسه ووظيفته للمتاعب ، مع بنت السابعة عشرة والجيش الجرار من المتيمين بها . . .

فأين أهلها ؟ لها وليس لها أهل ! فى بلدتها رأى أمها مشغولة بنفسها ، بعد موت زوجها والد جميلة . ولعلها على وشك أن تكون فى عصمة رجل آخر ، وكان ردها عليه ، وهى ترخى الطرحة على جانب وجهها الذى يشبه كثيراً وجه حبيبته ، برغم زحف السنّ على ملامحها :

— ابنتى حرة . تعرف خلاصها . تتزوج ممن تريد . . .

وعاد إليها كسير القلب ، لا يدرى إلى أى حد سوف تواجهه المصاعب : من مخدوميها أولا ، ثم ممن حوله ، إن هو تزوجها فى الخفاء . . .

وطيبت خاطره بنت السابعة عشرة . التى تدرى من الحياة أضعاف ما يدريه هو ابن الثانية والعشرين : الغر اليتيم . . .

وقصت كل شىء على سيدتها « إحسان » . فهى التى تقضى لها حاجاتها وتلازمها حتى فى الحمام . .

ونظرت ابنة الثلاثين ، إلى ابنة السابعة عشرة المتفجرة بالحياة . وقد لمست فى نفسها وتراً حساساً . . إلا أن نورانية إيمانها طمست عوامل حقدها على هذه الفتاة ، التى كانت تتصرف معها أحيانا بتذالة ، مستغلة حاجتها إليها ، ثم قالت لها :

— اتركى المسألة علىّ .

ومن مكانها فى الصدارة ، نظرت إلى سيدتها وأغضت .

يوم أن عرفت « محروس » ، كان لم يمض عليها شهران فى خدمة العائلة . لا تملك إلا جلبابا عتيقاً . نحيفة القد . هزيلة المحيا . . فأطعموها وكسوها ، وبين شهر وآخر ، أصبحت كالزهرة اليانعة . وإن كانت زوجة البواب — حسداً منها — تشبهها بالعجلة ! ضربة تأخذها

ويوم احتاجت إلى نقود — ربما لتشترى هدية لمحروس — لم تمد يدها إلا إلى نقود سيدتها « إحسان » ! وأخذت مبلغاً كبيراً ، كانت تحتفظ به لشراء حلية ذهبية . . ولم ينفع معها تهديد أو وعيد لتقر . أنكرت على طول الخط . . وكان فى مقدورهم أن يذيقوها العذاب ألوانا لتعترف ، ولكنهم اكتفوا بتخويفها إن هى أقدمت على مثل هذه

الفعلة . برميها فى السجن . . . غلطة وفاتت . . .

وهزت رأسها . كأنما تطرد شبحًا . واحتست قليلا من كوب المشروبات فى يدها . وهى تشعر أنها ملكت كل ما تريد . فبين أفراد العائلة والزائرين تجلس كواحدة منهم . لطالما تمنت أن تضع رجلا فوق رجل . كتلك الجارة التى تلبس البنطلون المخزق . إذن لظهر بعض ما خفى من جسمها الريان . . ! وتتكلم بنصف لسان . وتضحك ملء فيها بصوت كأجراس الموسيقى . . ولكن . هل تستطيع أن تفعل ذلك برغم احتفائهم فى يوم خطبتها . ؟

وبنصف عين نظرت إلى سيدها . وهو جالس هناك يقرأ الفاتحة . مع عريسها ورجال العائلة .

يوم أن طلب منها أن تحضر عريسها . ليتفق معه على زواجها — إلهى يطول عمره ! — كان ودوداً رقيقًا . كعهدها به فى معاملته للخادم جميعًا . فهو يقف بنفسه على إطعامهم . وكسائهم . وتوفير الراحة لهم قبل أهل البيت ! لا تنسى يوم أن « طب عليهم » ضيوف ساعة الغداء . ولم يبق للخدم شىء من اللحم . كيف أمر سيدتها أن تعد لحمًا لهم . وكانت الساعة أوشكت على الرابعة مساء . . . ولم يسترح حتى رآهم جميعًا وكل يأكل نصيبه .

قال لحبيبها :

— ستأخذها من عندى . وسأتكفل أنا بكل لوازمها . ولكن لن أعطيها لك قبل أن تقدم لها شبكة ، ومهراً . وأرى بنفسي ما أعددت

هذا فى الحجرة التى ستسكنها فيها . . سنة سنتان . . لسنا على عجلة من أمرها . المهم أن تكون أنت مستعداً . . .

وتفرست فيمن حولها :

لماذا لا يزغرد أحد ؟ وتنهدت .

وشق الصمت صوت نفير فى الشارع . صاحب صندوق الدنيا . يدعو الصغار . . . عم « زيزو » ! . تعرف صوته جيداً . وتحفظ « أسطوانته » عن ظهر قلب . . . السفيرة عزيزة . والزناتى خليفة . . . « ساعة فرجة يقرش يا أولاد . . . » هجاص ! كلها دقائق تمر كالحلم ثم ينفخ فى نفيره مرة أخرى . . . ويصيح بصوته « الحيانى » :

ـ الدور خلاص !

وكم من علقة توبيخ ، و « زغدين » « على الماشى » ، أكلتهما بسبب نفير عم زيزو ، وغرامها بصندوق الدنيا ، كلما صادفته فى السوق ، وهى تشترى حاجات المطبخ . . .

واليوم . هى شخصياً السفيرة عزيزة . . . « وياعواذل فلفلوا » .

لماذا لا يرقص لها أحد ؟ ماذا لو قامت هى من مكانها ، ورقصت « عشرة بلدى » ، كما رقصت فى فرح ابنة البواب ، فى العمارة خلفهم ؟ وكما رقصت أيضاً لابنة ساكن البدروم ؟

ولكن . هل ترقص العروس وسط هذا الحفل من الناس القوادم . ؟ نهايته ! فى الفرح يبقى ربنا يعدلها . . !

وزاغت عيناها .

ها هو ابن سيدها يدير لها الريكوردر . .

يا فرحتها ! يا نشوتها بهذه الآلة التى كانت تتمنى دائمًا أن تجلس معهم ، لتسمع أغانى أم كلثوم المسجلة عليها .

من خلف الباب كانت تقف لتتسمع للصوت الشجى ، والحجرة مكتظة بالزائرين والزائرات . يستمعون فى سكون الخاشعين . . .

وهى ترمقهم ، وتتمنى لو أتيح لها يومًا أن تجلس فى وسطهم . . وتضع رجلا على رجل ، ودخان السيجارة يتصاعد فى حلقات زرقاء من أنفها . . .

ها هى استطاعت أن تجلس على الأقل وسطهم وتسمع . . .

واعتدلت فى جلستها ، وفى يدها كوب الشربات ، ترتشف منه ببطء ، رشفات صغيرة لتظل الكوب فى يدها أطول وقت ممكن ، ولتستمتع بجو الحجرة المعطر بأنسام الزائرات . . .

وفجأة رأت خطيبها يقف ، ويطلب من سيدها أن يسمح لها بالذهاب معه ، لكتابة اسميهما على خاتمى الخطبة .

وفى ذهولها رأت الأفواه جميعًا تطلب منها القيام ! هذه الأفواه التى طالما أنبتها وزجرتها حينما كانت تخرج لتقابله ! إنهم اليوم يدفعونها دفعًا لتخرج معه ! ! هذا اليوم بالذات تتخلى عن نصف عمرها ، ثمنًا لقضاء ساعة أخرى فى هذا الجو الذى تمنت طيلة عمرها أن تعيش فيه . . .

وكالمنومة ، خرجت خلفه . لم تستطع أن تتفوه . وفى حياتها لم تتمن

أن تنشق الأرض وتبتلع أحداً . كما تمنت الآن أن تنشق وتبتلع خطيبها . . .

وسمعت صوت سيدتها الشابة يتعقبها بحزم :

ـ جميلة ! . . لا تطيلي الغياب . فاهمة !

ومن الشارع دوى نفير عم « زيزو » مؤذناً الأولاد .

ـ الدور خلاص . . .

obeikandl.com

الــعــــودة

obeikandl.com

. . . وتلاقينا . . . فى وقت كنت فيه كالتائه . . وحدة قاتلة . . وفراغ مميت . . وضياع . ضياع فى خضم الحياة . . ضياع وسط المدينة الواسعة . . كالغريق تتلقفه الأمواج وتدفعه بعنف حيثما اتفق . واصطدمت بها . . وجها لوجه ! . . وكأنما قطعتان من النفاية جرفهما التيار من الترعة الصغيرة إلى النهر الكبير . وفى عرضه تلاقيا . .

ووقفنا مذهولين . . وتعلقت نظرات كل منا بالآخر ، وتوارى العالم من حولنا : بضجيجه . . بصخبه . . بكل ما فيه . ونطقت العيون بذكريات مرة . . ذكريات موجعة . . كانت حرية أن تندثر إلى الأبد . . لولا هذا اللقاء المفاجئ . . .

وكانت أسبق منى إلى التحكم فى عواطفها حينما نطقت بصوت أسيف . . .

ـ أنت ؟ !

ودون أن أدرى ، لففت ذراعى حول ذراعها ، وجذبتها من وسط الزحام . . . وسرنا ! من كان يظن أن ذلك يحدث يوما ؟ !

فى قريتنا الصغيرة جمعنا أول لقاء : أنا ابن أحد وجهائها ، وهى الفتاة السيئة السمعة ، النازحة من قرية أخرى لتعمل .. ثم تحمل سفاحًا . . . ممن ؟ لا أحد يدرى . . ولا هى باحت باسم الفاعل ، برغم كل ما لاقت من صنوف العذاب . .

ويتكتل الكل ضدها ، وأنا أول المتحاملين عليها . . . وأنا . . . من أنا ؟ الابن الفاشل فى الأسرة ، بين إخوة تلقوا العلم جديعًا ، حتى وصل الأكبر إلى التخرج من الجامعة ، بينما الصغار كل فى طريقه إليها . . . وبليل فرت بعارها خوفًا من القتل .

وثقلت حياة القرية على فاشل مثلى ، بين إخوة مصدر فخر وإعزاز ، فشددت الرحال — دون أن أخبر أحداً — ونزلت إلى عالم آخر . . عالم عجيب بالنسبة لابن القرية الغر . . الحمام . الفاشل . عالم مثير . . كل ما فيه يزيغ البصر . . . عالم المدينة الكبيرة الزاخرة بشتات الناس . . .

وأحسست بالضآلة ، وسط هذا الخضم الغريب . . ولكن التراجع أصبح محالا . . . فقد عولت على أن أشق طريقى فى الحياة ، مهما صادفتنى العقبات . . .

وكانت العقبات أكثر مما أحتمل . . عقبات من كل نوع : بت على الأرصفة أحيانا ! وبت على الطوى ، وأمعائى تتلوى جوعًا . . وبت وملابسى لا تستر عرينى . . وبت وبرد قارس يلسع جسدى ويفريه فريا . . ومع كل ذلك تحملت . . . وشققت طريقى فى الصخر . . . لأجد عملا وضيعًا ، تافهًا ، يسد الرمق ، دون أن أجسر على العودة إلى بيت أبى ، حيث الحياة الرخية ، والملبس والمأكل الحسن . . .

عرفت معنى الجوع ، ومعنى الفاقة ، وقدرت كيف تهون النفس

وتذل . للحصول على لقمة العيش . . . وكيف يبيت الإنسان منذحراً . وهو لا يعلم كيف يواجه غده . و بعد غده . . .

ووسط كل هذه العقبات اصطدمت بها . . ضائعة مثلى . . في نهاية جرفها التيار . . ذليلة لا عائل لها ولا سند . تلتقط لقيماتها من أبشع طريق . . .

وتزوجتها ! ! وماذا بعد ؟ !

حينما يصل الخيال بإنسان إلى أسفل درك . يصبح وكل شيء لديه سواء . . نعم ! وماذا بعد ؟ تزوجتها . . . فهل استرحت في حياتى ؟

كالعبدة المطيعة كانت تستجيب لكل إشارة منى . . فأنا بالنسبة لها قارب النجاة . الذى أرسى حياتها على بر الأمان .

أما أنا . فمرارة تفغم حلقى كلما وقع نظرى عليها . . مزيج من الغضب . والحزن . واليأس . والغثيان . يمور في أمعائى لهذا المصير الذى وصلت إليه . .

ولكن . . . مع الأيام والشهور والسنين كل فوران إلى ركود . . . وكل نار إلى رماد . . .

بدأ الاستقرار يدب وئيداً إلى النفس الفوارة . بعد أن أنجبت لى طفلة لطيفة . ملأت دنياى زقاطا . . . وتعلقت بها . بالطفلة . تعلقاً أحسسته ينتزع كل حقد على أمها . . ورحت أعمل باجتهاد . لأوفر لها ولأمها حياة أفضل . . .

ما أجمل الراحة . وما أفظع العذاب . . وما أبشع أن يكون للمرء

ضمير . . ! فغالبا ما كان يثور هذا الضمير . فأنقلب إلى وحش . وبكل يأسى وحقدى وفشلى : أهجم عليها أوسعها ضربًا وشتمًا . فتنكمش على نفسها : لا تنبس بكلمة . . تحنى رأسها تحت وابل الضربات : دون أن تسأل عن السبب ... حتى إذا هدأت العاصفة : تجرجر رجليها إلى حجرة أخرى . تسكب دمعًا سخينا فى غير ما صوت أو حركة . . !

وبين هذه الحياة المتضاربة غير المستقرة . . . وبين اليأس والقنوط والأمل . . . لقيت أبى وإخوتى . . ! فجأة . . !

وفى مظاهرة من الأحضان والقبلات تلقفونى . . . ومن خلال دموع أبى الغزيرة . قال بصوت متهدج :

ـ أمك تموت كل يوم حزنًا عليك . . كلت أقدامنا من كثرة البحث عنك . أين كنت ؟ ! وكيف حالك ؟ ! وأين تعيش ؟ وماذا تعمل ؟ هيا يا بنى ! لن أتركك . .

أسئلة متلاحقة ، راح يمطرنى بها ، وهو يتحسسنى ، كأنما يتحسس قطعة من نفسه عادت إليه ، بعد أن فقد الأمل فى استرجاعها . . !

وبين هذه المظاهرة من العواطف الحقيقية . . العواطف الخالية من الزيف . . تمثلت حياتى . وارتعدت . . .

إذا كنت حقًا أستطيع العودة إلى بيت أبى . لأعمل معه فى أرضه ، وأعيش الحياة التى أتمناها . . فماذا أصنع بزوجتى ؟

وأحسست بطنين لكلمة زوجتى . ! فأنابها منفصل عن مجتمع

عائلتي تماما . . ولن يشفعني قول أو عمل . للبوح لهم بهذا الزواج . . .

هل أرفض الرجوع معهم ، بعد كل ما سمعت وأحسست ؟

وأمي ؟ أمي الغالية ؟ أمي الحبيبة ؟ هل أكسر قلبها وأنزلها إلى القبر محزونة ، دون أن ترانى ؟ ومن أجل من ؟ !

ورحت أدور فى حلقة مفرغة ، وأبى ينظر إلىّ غير مصدق أن أرفض إلحاحه ، فى العودة إلى أمى ، التى تتلهف شوقًا إلىّ . وإلى حياة كل ما فيها يوحى بالطمأنينة . . ولا بد أنه فطن إلى رثاثة هيئتى وملبسى . . فصاح بى :

– لماذا تتوانى ؟ ألديك ما يربطك بهذه المدينة الصاخبة ؟

وتولانى إحساس وجيع بالذنب ! المسكينة . ماذا فعلت لى كى أقسو عليها وأحرمها من فلذة كبدها ، ومن السند الوحيد فى حياتها ؟ أبدا لم ترتكب خطأ منذ تزوجتها . . تخدمنى بكل طاقاتها . . ولكن . هل أخبرهم بزواجى منها ؟ أكيد ، ودون مواربة سأقضى على أبى بهذا الاعتراف . . وسأقتل أمى بهذه الفجيعة . . وسيهون عليهم موتى ، ولا أدخل القرية بهذه العاهرة فى يدى . . .

وأمضنى اليأس من غفرانهم ، واليأس إحدى الراحتين ، فقلت بصوت خفيض ولكنه واضح :

– لقد تزوجت !

ولم أر وجه أبى متهللا كما رأيته وهو يعود لاحتضانى وتقبيلى قائلا :

– وماذا فى ذلك ؟ ! أنا وأمك نعيش بمفردنا بعد أن نزح إخوتك

obeikandi.com

جميعًا إلى المدينة . للعمل والنعيم . . وأملك فى أشد الحاجة إلى شابة ، تعينها على حمل مسئولية البيت . . أهلا بها يا بنى وسهلا . . أين هى ؟ هيا بنا إليها . . .

وزادنى كلامه حزنًا على حزن . وأنا أتخيل تحول وجهه المتهلل إلى اكفهرار . . . وأحسست بعبث الحياة . . وبالضياع . . وتراكمت الهموم على . . وتمنيت لو تنشق الأرض وتبتلعنى ، أو تسقط قنبلة علينا وتبيدنا جميعًا . . .

— لماذا أنت صامت هكذا ؟ هيا بنا !

قالها أبى وهو يدفعنى أمامه إلى سيارة أجرة ، أشار إليها فوقفت بجوارنا . .

وتلفت إليه فى ذهول . ووجدتنى أقول :

— إلى أين ؟ فصاح بى :

— إلى بيتك طبعًا ! أترفض أن نزورك ؟ !

فأجبت فى يأس ، وأنا أنتزع الكلمات من فمى :

— لنتكلم أولا ياأبى ، ثم بعد ذلك نفكر فى الذهاب . .

— نتكلم هناك يا أخى ، هيا بنا هيا !

وشدنى من ذراعى ، وبيده دفعنى من ظهرى ، ليدخلنى فى السيارة ، فإذا بى كالوتد الراسخ فى الأرض ، لا أمل فى نزعه . . . والتفت ينظر فى وجهى ، ولعل هول منظرى أشعره بخطورة ما أعانى ، فصرف السيارة بحركة من يده ، واقتادنى إلى مكان هادئ . . .

وقصصت عليهم كل شيء . . .

وكما توقعت . كان وجه أبي يتحول من الاكفهرار إلى الاصفرار إلى الاحمرار . . . وهو يضغط على أسنانه حتى أحسسته واقعًا لا محالة . . . مغشيًّا عليه . ولكنه تجلد ليمنع نفسه بالقوة من السقوط . . .

وسكت . أما هو فلم يرفع عينيه عن الأرض . كان يرتكز بيديه الاثنتين على عصاه الغليظة . كأنما يحتمي بها من الانهيار . . . وإخوتي صامتون . ينقلون البصر بين أبيهم وبيني . كأن على رءوسهم الطير . . .

وفجأة رفع أبي عينيه إليّ وقال بصوت أجش :

— الله يغفر . أفلا نغفر نحن ! هات زوجتك . وهيا بنا .

• • •

وللمرة الأولى في حياتها منذ تزوجنا وقفت أمامي تجادلني بالرفض ! وأقسمت ألا تعود معي ! أقسمت وهي تبكي بكاء مرًّا أن آخذ ابنتي وأربيها وسط أهلي ! أما هي فستعرف كيف تدبر أمرها . . .

ورأيتني أحتضنها وعذاب يملأ نفسي كلها . وابنتنا تزقزق بين أرجلنا صائحة :

— إلى أين يا أبي ؟

وتبخر كل أمل في العودة . . .

أمـــــــــَـــــل

obeikandl.com

الإصابات عميقة .. البتر لابد منه .. غيبوبة تلاحقه وسط ساعات الصحو الأليمة .. غيبوبة تتخللها أهوال الصراع الدموى . . . ولكن إحساسًا بالرضا يسرى فى أوصاله ؛ فيبتعث دفئًا فى موات أطرافه : قبل أن يفقد وعيه استطاع أن ينقذ سرية من هلاك محقق . . ونجوا عن آخرهم بعد أن ضحى بحياته .

ضحى بحياته ؟ !

إذن فما هذا الذى يحسه من حوله ؟ !

ولكن ! كيف نجا ؟ ! هذه معجزة ! هل الحياة ردت إليه بعد أن فقدها ؟ !

وبجهد فتح عينيه . . ليرى الدنيا مرة ثانية . . ليحس أنه على قيد الحياة حقًا وصدقًا ، وليس ما يستشعره « أضغاث أموات .. ! »

ومن خلال نظرته المتعبة ؛ رأى وجوهًا كثيرة . . كلا ! هذه ليست وجوهًا بل عيون . . . فالبياض يخفى كل شىء إلا العيون : عيون تترقب . . وعيون قلقة . . وعيون متألمة . . ولكنها كلها عيون يقظة . . !

ما كل هذا الذى يراه ؟ !

همهمات تصل إلى أذنيه . .

ها هو ذا يسمع أيضًا !

الحمد لله . . السمع أيضًا لم يفقده . . كل شيء بعد هذا يهون . . .

وبدأت العافية تدب فى أوصاله ، بعد أن رأى زجاجة « البلازما » معلقة أمامه ، وأحس بسريان الدم فى ذراعه . .

وأزاح الأطباء الأقنعة البيضاء ، وصاح كبيرهم ، وهو يخرج زفرة طويلة ، وعيناه تومضان ارتياحًا :

ـ أخيراً . . .

عشرة أيام وهو فاقد الوعى . استماتت الأطباء فى إنقاذ حياته . . عشرات من زجاجات البلازما أعطيت له . . جراحات شتى أجريت له . . لم ييأسوا . . . وبعد عذاب ممض ، فقدوا الأمل فى نجاته . . ولكن فى العمر بقية . . وها هو ذا يعود إلى الحياة . . ومرة أخرى سيرى « أمل » . . معبودته الصغيرة . .

ـ الحمد لله على سلامتك . .

لم يكن يسمع سوى هذه الكلمة من كل طبيب يمر به . . فأدرك إلى أى حد كانت حالته من الخطورة . . وإلى أى مدى بذل الجهد فى إنقاذه . . .

وأحس استرخاء ، أشبه بخدر النعاس ، يستولى على كل جارحة فيه . . لا بد أنه مفعول الحقنة المخدرة . ولكن نقطة فى وعيه لم تزل ساهرة تكافح الكرى . .

وكان مساء . . وكان صباح .

ومع النور . وحرارة الحياة . بدأت « طلعات » الأصدقاء . . .

ها هم إخوانه فى السلاح والكفاح يتناوبون السؤال عنه . . بعيون متلهفة . . وقلوب تفيض بالود . . كل يوم يرى عشرات من الزوار لم يسبق له معرفتهم . . . الكل يسأل . ويتمنى الشفاء . حتى خيل إليه أن ما من أحد يزور المستشفى إلا ويمر عليه . . !

وأتخمته الهدايا . حتى لم يعد يجد لها مكانا .

أقارب الجرحى الآخرون . وأصدقاؤهم يمرون عليه . ويحيونه . وكأن صداقة قديمة تربطه بهذه الوجوه . التى لم يرها من قبل . . .

جميل أن يحس الإنسان أنه قام بعمل يقدره الناس . . . حتى الذين لا يعرفهم . .

ولكن أين « أمل » ؟ وأين زوجته ؟ لماذا لا يراهما مع كثرة من يرى ؟ !

— ليس الآن !

قالها الطبيب وهو يحاول أن يربت كتفه بلطف فكل ما فيه مغطى بضمادات . . . الطعام يوضع فى فمه بيد الممرضة . . . كذلك الشراب . . . وملحقات الطعام والشراب . . .

— أليس الأفضل أن ترياك وأنت على حال أحسن من هذه ؟

أخيراً جاء اليوم الذى فكت فيه بعض ضماداته . وسمح له أن يجلس على كرسى ذى عجلات .

كانت فرحته لا حد لها . . فقد تقدم الطب بحيث يمكن أن

يركبوا له ساقاً أخرى ، بدل التي فقدها .. أما ذراعه اليسرى ، فقد قيل له إن علاجها ميسور بعد عدة جراحات .. والبعض كل ما بها كدمات ، تحتاج إلى تدليك وجلسات كهرباء .. أمرها سهل !

ولكنه يريد أن يرى وجهه .. أن يرى مدى التغير الذي طرأ عليه ... ينبغي ألا تراه « أمل » على صورة لا يرضاها لنفسه ..

لشد ما تغير ! لشد ما أصابه الهزال .. لشد ما مسخ وجهه الوسيم ، فأصبح دميماً مغضناً شاحباً كوجوه الموتى .. !

كلا .. لن يسمح لأمل بأن تراه وهو على هذه الحال .. عليه أن ينتظر .. ولا زوجته أيضاً يجب أن تراه ..

— إنها أيام .. أيام معدودة .. وتعود إلى حالتك الأولى ... عليك فقط أن تأكل كل ما يقدم لك ، لتسترد عافيتك .

هكذا قال له الطبيب المعالج ..

ولكن الأيام تمر .. والمستشفى يكتظ بالزوار .. وفى كل حجرة يرى الزوجات والأطفال .. والضحكات تدوى .. وزئاط الأطفال يملأ الممرات .. والكل ينعم بسؤال الأهل والأقرباء .. وتندى عيناه بالدمع .. وتمتلئ جيوبه بقطع الشكولاته : كلما دفع صديق كرسيه ذا العجلات للسؤال عن جريح .. فهذه القطع يحتفظ بها لأمل .. ويشعر بوقع نظرات العطف من خلفه تشع من عيون الزوجات والأمهات .. ويشيع بسيل من الدعوات ..

يوم آخر من أيام الزيارة ..

لقد بات يعرف تلك الأيام جيداً . ويميزها بين الأيام التى تمر متشابهة فى المستشفى . . ففى يوم الزيارة كل شىء يلمع . . وعلى الجدار المنخفض الذى يفصل دهليز عنبر الجراحة عن دهليز عنبر العظام . يبرز « قرقول شرف » عبارة عن طابور من الزهريات المتشابهة . كأنها جنود فى كسوة رسمية موحدة . . وفيها أزهار متشابهة « التشكيلات » من أبدع الأزاهير وأنضرها . .

وفى ركن الدهليز ، جثم على كرسيه ذى العجلات يرقب أوائل أسراب الزوار . . . ويرنو إلى الأزهار الجميلة ، التى تصافح العين من ارتفاعها فى شموخ . .

مع الزوار أولاد وبنات . . .

ترى متى يرى ابنته هو . . أمل ؟

الصغار لا يطيقون المكث طويلا داخل الحجرات . . سرعان ما يخرجون إلى الدهليز . . ويرقب حركاتهم ، وعيونهم اللامعة ، من ركنه ، فى سرور صامت ، ويتخيل « أمل » تلعب معهم ذات يوم . . .

ورأى ولداً . . لعله فى السابعة أو أصغر قليلا . . يقف قبالته . . وعيناه تلمعان كالماس الأسود ، يتطلع إليه بإمعان ، وهو واقف على رجل واحدة ، يدق الأرض برجله الأخرى . . .

وفجأة . وبدون أن يتسع الوقت للتفكير . استدار الولد خلفه . .

وأخذ يدفع كرسيه المتحرك بسرعة الصاروخ نحو الحائط . . !

ودار كل شيء فى رأسه ، كأنما تجمعت داخله خلية من النحل البرىّ . . .

ذراعاه أوهن من أن تستخدما « مانعة تصادم » مع الحائط . . أما رجلاه ؟ ! أى مهرب له وقد أصبح ألعوبة فى يد طفل عابث . ؟ !

واحتبست فى حلقه الصرخة ، وقد جمدته برودة العجز اليائس . .

أهذا كل ما تبقى مما يسمونه بطولة ؟ ما أهون كل شيء . !

ترى ماذا أوقف اندفاع العجلات قبل ارتطامه بالحائط ببضعة سنتيمترات ؟ !

والتفت خلفه ليرى ماذا عاق الولد عن جنونه الطائش ؟ أتدخل أحد فى آخر لحظة ؟

الولد يتحرك بكل هدوء . . وحده . . ليس معه أحد . . لا ينظر إليه . . بل يقيس بعينيه شيئًا . . ثم يضغط على شفته السفلى ، ويأتى بكرسى يضعه بجواره . . .

لماذا اختار أن يجلس بجواره هنا إن كان الجلوس بجواره ما يريد ؟!

ولكن الولد لا يجلس !

إنه يتسلق الكرسى ، يقف فوقه ويشبّ على أصابع قدميه ، لتصل أنامله إلى زهرة بيضاء فى إحدى الزهريات . ويستدير فيقدمها إليه . . . ولا يقول شيئًا . . .

وفاض الارتياع المكبوت عرقًا على جبينه . . وتنفس الصعداء . .

وأدنى أنفه من الزهرة اليانعة يلتمس فى عطرها العزاء . .

ما أعجب قدرة الإنسان . ! من البلاستك كانت الزهرة . ! ولكنها ذات نضرة لا تذبل !

هذا أفضل ! سأحتفظ بها مع الشظايا التى أخرجوها من ساقى !

وتلفت يلتمس الولد . فهو يستحق أن يشكره على كل حال لم يدر بذهنه أن حماسته المندفعة يمكن أن تفزع ، بطلا . . .

ولكنه وجد الولد قد اندفع فى اللعب مع رفاق جمعتهم به الصدفة . .

. . . يوم زيارة أعقبته أيام . .

وأخيراً . . ذات صباح قال له الطبيب بنظرة مرحة :

— مبروك ياعم ! اليوم تستطيع أن ترى أسرتك !

ومنذ الصباح الباكر طلب أن يحلق ذقنه . . وتضمخ بماء الكولونيا . . ولبس بيجامة نظيفة ناصعة البياض . . وفى ممرات المستشفى راح يجرى بكرسيه مستعيناً بيده السليمة . مطوحاً بها فى الهواء . . ووجهه يطفح بشراً . . .

بعد لحظات ستكون أمل بين ذراعيه . . يضمها إلى صدره بعنف حتى تصرخ فى مرح ، كما كان يفعل معها دائماً . .

وفطن إلى ذراعه الراقدة إلى جوار جسده لا يستطيع حراكها .

كلا ! لن يراوده الحزن . فبذراعه الأخرى القوية يمكنه أن يضمها ، كأعنف ما يضم أب صغيرته الجميلة . . !

ها هى ذى الدقائق تمر . . لم يبق على موعد الزيارة سوى

لحظات . . ترى كيف ستستقبله الصغيرة ؟

وبدأت دقات قلبه تعنف . . وأحس بشجاعته تخونه . .

وأسرع إلى المرآة يسألها عن مدى تغيره . . لن تستطيع أن تصدقه النمو . . فقد اعتاد رؤية نفسه أسابيع طوالا . .

. . سيغمرها بعلب الشيكولاتة . . سيملأ حجرها وجيوبها . ويستمتع بضحكاتها البريئة الملائكية . وهى تعبث بيديها الصغيرتين ، منتشية بكثرة ما حولها من حلوى . . .

وأفاق على صوت حذاء . . حذاء يعرف دقاته . بين آلاف الأحذية . .

وأرهف أذنيه .

هذه زوجته تسرع الخطو . . وبجانبها خطوات صغيرة . . خطوات أمل . . .

واعتدل فى جلسته . وعيناه على باب الحجرة . . ولوجيب قلبه صوت أحسه كوقع حذاء جندى على أرض مرصوفة . . .

وظهرت زوجته . بقامتها الهيفاء . تدفع الطفلة أمامها فى إشراق أبلغ من الحزن . . . وما إن وقع نظر الصغيرة عليه . حتى تصلبت فى مكانها كأنها سمرت فى الأرض ، مرتكزة بظهرها على ساق والدتها والفزع يملأ عينيها . وقد أطبقت شفتيها القرمزيتين فى عصبية . لتمنع صرخة كادت تفلت منها . . ولم تفلح والدتها فى تهدئة روعها ، أو فى حثها على التقدم خطوة واحدة . . ولا أجدت كلمات التدليل

والإغراء بعلب الشكولاتة فى زحزحتها من مكانها . . .

وتركتها أمها عند الباب ، واندفعت إليه تعانقه وتناديه بالأسماء التى اعتادت أمل أن تناديه بها . . وهى تضحك ضحكًا هستيريًا : تاركة لدموعها العنان دون أن تشغل نفسها بتجفيفها . .

ونثر قطع الشكولاتة فوق الفراش ، وراح ينادى أمل بأعذب الألفاظ ، ويذكرها بما كان بينهما فى آخر لقاء . . والطفلة ترمقه وتتتبع حركاته فى توجس . . .

أإلى هذا الحد انقلبت سحنته ، حتى أنكرته الطفلة ؟ ! والكبيرة ؟ ألا تستطيع التغلب على دموعها ؟ !

وطأطأ رأسه . . وأفلتت من عينيه دمعة أحسها على يده المنطرحة فى حجره كلسعة الجمر . . .

وفجأة أحس بيدين صغيرتين تطوقان رقبته . . وشفتين ندييتين تلتصقان بخده . . وأنفاس صغيرة تلفحه . . .

ومد ذراعه . . وطوق الجسم الصغير اللدن . . بكل الحنان . والشوق . والحب . وراح يتشمم رقبتها ورأسها وكل جسدها . . . بعنف كغريق ردت إليه الحياة وقد فتح رئتيه يملؤهما بعبيرها . .

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ٢٠٩٩ / ١٩٧٥

مطابع دار المعارف بمصر - ١٩٧٥
٢١ / ٧٥ / ١

oberkandl.com

المحتويات

	الصفحة
١ — القفص الأحمر	٧
٢ — هي والشمس	١٧
٣ — سرهما الخاص	٢٧
٤ — أشياء صغيرة	٤١
٥ — الشارب المعقوف	٤٩
٦ — ونسيت كل شيء	٥٩
٧ — ثمان عيون	٦٧
٨ — السرداب	٧٥
٩ — لحظة صحو	٨٥
١٠ — يوم جديد	٩٥
١١ — قطعة من الجلد	١٠٣
١٢ — الضباب	١١٣
١٣ — الخيمة الزرقاء	١٢١
١٤ — الأفق المفتوح	١٢٩
١٥ — حكاية قفاز	١٣٩
١٦ — صفاء	١٤٩
١٧ — شيء لا يصدق	١٥٧
١٨ — العرى	١٦٥
١٩ — رجفة إصرار	١٧٧
٢٠ — النفير	١٨٧
٢١ — العودة	١٩٧
٢٢ — أمل	٢٠٥

obeikandl.com